خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلبٌ ودنا مِن الغلام، فرمى إليه الغلام بقرصٍ فأكله، ثمَّ رمى إليه الثَّاني والثَّالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كلَّ يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلِمَ آثرت به هذا الكلب؟! قال: ما هي بأرض كلاب، إنَّه جاء مِن مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟! قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: أُلام على السَّخاء! إنَّ هذا الغلام لأسخى منِّي. فاشترى الحائط والغلام وما فيه مِن الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه"[٣]

- ورُوِي أنَّ (مسروقًا) أدان دينًا ثقيلًا، وكان على أخيه (خيثمة) دين، قال: فذهب مسروق فقضى دين خيثمة، وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم.!

لم يكن الإيثار طبعا جبلت عليه النفوس أو توارثوه أبناء عن آباء، وإنما كان خلقاً طبع به ديننا كل من دان به..وحينما أقام أسلافنا هذا الخلق في حياتهم ، جاء منهم ما يشبه الاساطير في فناء الذات وحب الآخرين..

حينما يقسو القلب !

قال مالك بن دينار: (ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله عزَّ وجلَّ على قوم إلا نزع منهم الرحمة)

وقال: (أربع من علم الشقاوة: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا)

وقال ابن القيم: (ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله)

وقال سهل بن عبدالله: (كل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب فإنها قسوة)

كان النور يكسو جبينه ويتلألأ الإشراق في وجهه..وملامحه الربانية تشع سكينة ووقاراً، وكنا حوله نجلس مأخوذين مبهورين، ثم ينساب حديثه العذب الذي يمتع به نفوسنا المشتاقة، وصدورنا الملتاعة..وفجأة يخرج العالم الرباني عن سمته وهدوئه، فينفعل في حديثه، وتحمر وجنتيه ويزمجر وجهه، وتثور كلماته، ويضرب بقبضته الشديدة على منضدته ، ويصيح بأعلى صوته ويقول :

(إن الإنسان بدون دين وبدون خلق هو أقذر وحش على هذه الأرض)

ذلكم هو شيخنا العلامة الكبير فضيلة الشيخ (حسن أيوب) رحمه الله وجعل الجنة مثواه..وكم في الحياة من نماذج صدّقت مقولة الشيخ الغاضب، بل كم من أناس حسبوا على البشر، وما كانوا عليهم إلا لعنة وجحيماً.

وكأنما رضعوا من لبان الوحوش المفترسة، أو قدت قلوبهم القاسية من الصخور الصماء..ولكن الحيوان لا يفعل بالحيوان ما يفعلونه هم بالإنسان، وكذلك الحجارة حسب ما أخبر ربنا سبحانه فمنها:

(لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة:٧٤)

---

[٣] إحياء علوم الدين

لقد تربع الاستعمار القديم في غفلة من أمة القيم على بلاد الدنيا، يسرق وينهب ويستعبد ويقتل، وتستمر الحياة ..وتتصاعد النداءات بحقوق الإنسان وحريته، فهل رغم هذا توقف الكبراء عن ظلمهم وطغيانهم؟..لا.. فالحياة مازالت تذخر بأطماعهم، ومازالت الأرض تنضح بأمثالهم في كل عصر..بل توسعت لتشمل صورتها حكومات ومجتمعات ودول وجيوش يشحنها الطمع ، ويشطح بها الجشع ويحركها الحقد فتتعدى على الأمم الصغيرة فتقتل الأرواح وتنتهك الحرمات وتنهب الثروات..وهكذا قدر للإنسانية البئيسة أن يقودها هؤلاء البغاة الذين تجردوا من المشاعر وسلخوا أنفسهم من الإحساس.

ويتحدث الإمام الأكبر (محمود شلتوت) رحمه الله حول ذات المعنى ، الذي أكده شيخنا (حسن أيوب) رحمه الله، من وحشية الإنسان حينما يتجرد من القيم فيقول: (أما الإنسان إذا قسا قلبه ، وخلت من المروءة والشهامة نفسه، وعاش لنفسه فقط فإنه لا يعبأ بآلام الناس ، ولا يكترث لمصائب ، ولا يشارك في تخفيف الويلات ، فذلك وحش ضار في صورة إنسان!

إن الرجل الذي لا يؤثر في نفسه منظر البؤس ، ولا ضحية من ضحايا الفقر ، لهو رجل فظ غليظ، قد من الحجر الصلد قلبه ، وصيغت من الصلب الجامد أعصابه..إن الرجل الذي يكون همه في ليله ونهاره أن يحسب حساب دخله وخرجه، ولا يحدث نفسه في ساعة من ساعاته عما أحسن أو بر أو تصدق ، لهو رجل غير جدير بإنسانيته ، غير جدير بأن يعيش بين الناس كأنه واحد منهم ، وإنما مكانه بين الوحوش الضاريات في جبل أو فلاة..إن الإنسان هو الذي يرحم وهو الذي ينقذ المُوَرَط، هو الذي ينهض العاثر ، هو الذي يحمل الكل، ويحنو على الضعيف.) [1]

ما أصدقه من كلام وما أروعها من حقائق ..!!

سُئل (كونفشيوس) من أحد تلامذته هذا السؤال:

كيف أؤدي واجبي تجاه الأرواح..؟

فأجابه (كونفشيوس):عندما تتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء..!!

وهذه النخلة كان الفناء مصيرها حينما اتخذت منهج القسوة ومنعت خيرها عن الأحياء ، إذ يحكى أنه كانت هناك نخلة تثمر كل عام كميات كبيرة من التمر والرطب، وكان صاحب الحديقة يحبها حبا شديدا ويتولاها بالرعاية والاهتمام، وفجأة قالت النخلة لنفسها: لماذا أرهق نفسى وأثمر هذا الرطب ولا أحصل شيئا من هؤلاء البشر غير الرمي بالحجارة، عندها قررت عدم الإثمار وجاء موسم التمر والرطب وهى واقفة كالوتد لا خير فيها ولا ثمر، فقد بخلت بما حباها الله به من نعم على عباد الله، فضاق صاحب البستان ذرعا بها وقرر اجتثاثها والانتفاع بخشبها فى التدفئة فى برد الشتاء، ولقد كتب إيليا أبو ماضى في ذلك قائلا:

وظلّت النخلة الحمقـــــــــــاء عارية

كأنها وتد فى الأرض أو حجـــــر

---

[1] من توجيهات الإسلام للإمام الأكبر محمود شلتوت

فلم يطق صاحب البستان رؤيتها

فاجتثها فهوت فى النار تستعر

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به

فإنه أحمـــــــــــق بالحـرص ينتحر سئل أحد الأدباء ..كيف يستطيع الإنسان أن يجعل لحياته قيمة إذا كان لا يملك جاهاً يخدم به الآخرين ولا مالاً يساعدهم به؟
فأجاب: نجد الجواب عند الشاعر (أمادو نرفو) حينما قال: في كل ساعة من ساعات النهار تستطيع أن تجود بشيء للآخرين..قد يكون ابتسامة في وجوههم ، وقد يكون يداً تمدها لمصافحتهم، وقد يكون كلمة تمسح بها أحزانهم..وعند الشاعر والفيلسوف الأمريكي (رالف أمرسون) جواب آخر هو : كن دائماً رسولاً يفتح الأبواب لمن يأتي بعده ..ولا تحاول أن تجعل من الدنيا طريقاً مسدوداً)
في أحد البرامج المذاعة التي كانت تتقصى مشكلات الناس وأزماتهم ، عرض المذيع مشكلة لرجل في الأربعين من عمره، وبينما الرجل يقص مشكلته إذا به ينفجر من البكاء، لأنه لا يجد من القوت ما يسد به جوعة أولاده، ولا يتحصل على الدواء لمن مرض منهم..والحق أننا نسينا كثيراً ..وابتعدنا عما كُنا عليه من قيم ديننا العظيم، ولا أعرف على أي صورة من الضياع ..سيكون مصير مجتمع تهان فيه الرجولة وينكسر كبرياؤها إلى هذا الحد.!
إن الرجولة الحقة تدفع صاحبها نحو آلام الناس ومشكلاتهم، فيواسي ضعيفهم، ويداوي جراحهم، ويخفف من مصابهم..وشهامة الرجال تأبى على أصحابها أن يهنأون بعيشهم سعداء مسرورين ، وعلى بعد خطوات منهم إخوة لهم نفوسهم معذبة، أهلكها الجوع وأضناها الفقر ..ونبل النفوس وشرفها لا يقبل أبدا بهذه الصورة البغيضة التي خانت معنى الإنسانية، فمروءتها تفسد على أصحابها إحساسهم بهذه المتع ، وتدفعهم دفعاً نحو المتألمين.. يغيثون الملهوف ويفرجون المكروب،ففي ذلك السرور الحقيقي والسعادة الكبيرة..وها نحن يُطالعنا نبأ المرأة المسكينة التي ألقت بنفسها من شرفة منزلها يائسة منتحرة لأنها لم تستطع أن توفر لأبنائها مصروفات المدرسة..فكيف يحدث هذا في مجتمع المسلمين، الذي يدين أفراده بالإسلام ويقرؤون القرآن..فهل هذه فعلاً أخلاق القرآن ؟!
وهل هؤلاء هم من يتخلقون بأخلاق هذا القرآن؟! أن يرى الأغنياء من حولهم من المعذبين من يذبحهم الفقر بسكينه الباردة، فيقفون بلا شعور لا يُبالون بآلام المساكين والمحرومين والضائعين..ألا ما أبعد هذه الحياة وأحيائها عن معنى الفضيلة التي رسم معالمها نبينا العظيم ﷺ بما جاء من أخلاق الإسلام السامية.!
يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم ﷺ: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)
(الأنبياء:١٠٧)

إن رحمة العالمين هي رسالة الإسلام ، ثم هي ليست خاصة بالعرب وحدهم ..وإنما هي عامة، بقوله (للعالمين) فلم يقل للأهل أو للعشيرة.. أو لخاصتك وقومك ..بل شملت كل العوالم، بلا اعتبار للون أو جنس ، كما أنها رحمة ليست خاصة بالإنسان وحده في هذا الكون.. وفي هذا أبلغ معاني الخير.. لقد عاتب الله تعالى الإنسان من أجل أخيه الإنسان، وجعل البر إلى هذا الإنسان.. براً به سبحانه وتعالى ليؤصل معاني الرحمة بين البشر جميعاً ففيما رواه مسلم:

(إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يابن آدم مرضت فلم تعدني، قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟! يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟! أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما علمت أنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي؟!)

وصدق الله تعالى في خطابه للمؤمنين: (وجعل بينكم مودة ورحمة" فهذه صفة المؤمنين، بينهم مودة ورحمة، فمن قسا على المؤمنين فقد أخلّ بهذا الوصف. وكان رسول الله ﷺ يصف نفسه ويقول : (إنما أنا رحمة مهداة)[1]

ويقول : (إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة) وذلك حينما طلب منه أن يدعو على المشركين.

وقال ﷺ: (لا تنزع الرحمة إلا من شقى)

فاحذر أن تكون من القاسية قلوبهم فيشقيك ربك.. وتضيق عليك الحياة كما ضيقتها على عباد الله..!

قال الغزالي في المقصد الأسنى: (وحظ العبد من اسم الرحيم ألا يدع فاقة (فقراً ولا حاجة) لمحتاج إلا ويسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره أو في بلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إما بماله أو جاهه أو الشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن رقةً عليه وعطفاً حتى كأنه مساهم له في ضره وحاجته)

أما القاسية قلوبهم من عباد الله على عباد الله، فقد شدد الله سبحانه عليهم النكير، وبين سوء مكانتهم وعظيم جريرتهم، هؤلاء الذين يتركون الناس حتى يهلكهم الجوع، وتفتك بهم الحاجة، ويمزقهم العوز ..هؤلاء وأمثالهم جعلهم الله تعالى في مكانة سحيقة ونالهم من غضبه ووعيده ما نال المشركين المكذبين بدينه ورسالته، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ،وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)(الماعون: ١-٧)

ولم يفت شيخنا (حسن أيوب) رحمه الله أن يتحدث في هذا الجانب الذي عظم الله أمره في القرآن الكريم ، فقد ذكر في كتابه النفيس (السلوك الاجتماعي في الإسلام): (لقد عظم الله تعالى هذا الجانب في آياته، فإن الذي يزجر اليتيم وينهره، ويُهمل المسكين

---

[1] تفسير بن كثير

الذي أذلته الحاجة ، وعضه الفقر والبؤس، هو إنسان كافر مُكذب بالدين لا يؤمن بلقاء الله وحسابه وجزائه، ولو آمن بالله وجزائه وكتابه لاندفع بقلب ملئ بالرحمة حريص على النجاة من عذاب الله وغضبه، فأكرم اليتيم، وأعطى المحتاج مما أنعم الله به عليه.)

ويبين الله سبحاه للمشركين مصيرهم المفجع ، ثم يذكر لهم علة هذه الهاوية والعذاب الذي سلكوه فيقول تعالى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) (الحاقة: ١٣-٣٤)

ألست ترى ذلك الذي أُخذ إلى جهنم في سلسلة عظيمة ثقيلة، وصُبت عليه جميع أسباب الإهانة والمذلة ..إن الله تعالى لم يذكر في حيثيات الحكم عليه إلا أمران؟.

١- إنه كان لا يؤمن بالله العظيم.

٢- ولا يحض على طعام المسكين.

وعدم الإيمان بالله هو أكبر ذنب وأعظم جريمة، فإذا قرن به ذنب آخر ، فإنه ولا شك ذنب كبير الحجم عظيم الجرم..والذنب الذي قرن بالكفر هنا هو: عدم الحض على طعام المسكين..! لقد جاء الذكر بعدم الحض ولم يأت بعدم منع الإطعام.!

وفي التحرير والتنوير: (وقد جُعل عدم الحض على طعام المسكين، مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشحّ عنهم بماله)

ذنب عظيم أن تتمرغ الأمة في الشبع والتخمة وتتفنن في ألوان الطعمة والأشربة على يد المسرفين، وهناك مساكين تتقطع أمعاءهم من الجوع ، أو أيتام يعانون الحرمان ، أو فقير تقهره الحاجة أو (أرملة فقدت عائلها فصارت تتغذى بدموعها، وتكتسي بهمومها، وتنظر بعينين زائغتين، لعلها تجد إنسانا تهزه إنسانيته فيرعاها، فإذا بها تجد ذئاباً تعوي لتمزقها وتقضى عليها..أليس الجزاء هنا من جنس العمل ؟... أليس هؤلاء الذين يموتون من شدة الشبع والسكر والعربدة وإنفاق الأموال ببذخ على شهواتهم الحيوانية بينما البطون من حولهم تعوي، والأجساد تتعرى، والبؤس يخيم على طائفة من الناس، هم إخوانهم في الإنسانية وفي العقيدة وفي الوطن..أليسوا يستحقون هذا الجزاء الإلهي العادل؟ ..إنهم أشقوا الناس فأشقاهم الله، وما ظلمهم الله شيئاً ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين.... وكما تدين تدان..)[١]

(والعقاب في الآية يشمل أولئك الذين يمنعون الماعون وهم قادرون عليه، لكنه عم كذلك الذين لا يحضون عليه ولا يدعون له، ولا ينهضون القادرين أو يحثونهم على البذل وإيتاء الماعون)[٢]

وكم يكون الإنسان غبياً وخسيساً حينما يطرد من نفسه صفات الرجولة والمروءة والنخوة، ليصير حقيرا خسيسا يفتن على الناس ويجتر لهم المصائب، ويصير عينا للظالم المتجبر، يرصد من خلالها حركاتهم وسكناتهم..ولعل من أبشع صور الخسة ما حكاه لنا الشيخ (عبد الحميد كشك) رحمه الله في مذكراته عن (جريمة التكافل) أيام اعتقاله في سجون الطاغية عبد الناصر ، وهي فترة حالكة من فترات مصر المظلمة

---

[١] السلوك الاجتماعي - حسن أيوب

[٢] الإسلام وهموم الناس- أحمد عبادي - كتاب الأمة

التي قتلت فيها الحرية، وأهين الإنسان، وتجرعت البلاد ذل الهزيمة والعار على يد الطاغية الذي لم يكن يحسن شيئاً إلا قهر شعبه وإذلاله ، بينما إسرائيل تمرغ هامته في الوحل..!

يذكر لنا الشيخ كشك رحمه الله فيقول: كان في السجن ما يسمي بالتكافل، وهو تعاون الإخوة فيما بينهم، بمعني أن من وجد يعطي من لم يجد ، وأن القوي يعين الضعيف ويغيث الملهوف ، وأن القادر يأخذ بيد العاجز وهكذا..لقد كنا نتعامل ما يسمي (بالكانتين) الذي يقوم بشراء الفاكهة، فهي تدر الربح الوفير للقائمين عليه ويعود بالفائدة علينا ، حيث إن طعام السجن يأتي بأمراض لا يعلم مدي خطرها إلا الله تعالي.. !

والشئ الذي يثير في النفس كوامن الحزن ، ولواعج الأسى، وينخلع له القلب من الهلع أنهم حرموا التعاون فيما بيننا !! فلم يكن في أحدنا طاقة أن يتعامل مع الكانتين لأنه عاجز عن ذلك لضيق ذات اليد ، فإنه قبل أن يدخل السجن كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه، فلما دخل السجن وقع أهله في ضيق شديد ، فقد كان من تسول له نفسه أن يطرق بابهم ولو بالسؤال عنهم كان مصيره كما يقولون (وراء الشمس) ، فإذا ما مدّ يد المعونة فتلك جريمة لا تغتفر .!

أعرف رجلا كفيف البصر ظل في السجن عامين ، لأن جاره قد اعتقل فذهب إلى أهله وأعطاهم جنيهين تلك كانت جريمته !

أذكر ذات يوم أن القائمين على شأن (الكانتين) في سجن (أبي زعبل) جاءوا لنا بكمية وفيرة من البرتقال ووزعت على المتعاملين مع (الكانتين) وحرم منها الذين لا يجدون ما ينفقون ، وكنا في العنبر قد بلغ عددنا مائة وعشرين، منهم بعض أفراد لم يستطيعوا التعامل؛ ومن هنا حرموا من البرتقال ، ذلك لأن القوانين الصارمة تمنع منعا باتا أن يمد أحد المعتقلين يده بشئ أيا كان نوع هذا الشئ إلى أخيه في المعتقل، ومن ضبط متلبسا بذلك استدعي للتحقيق وحبس حبسا انفراديا في زنازين التأديب، حيث يصرف له رغيف واحد طوال اليوم بجانب قليل من الماء وبعض حصيات الملح ..!

كانت القوانين صارمة إذا ما قام أحد (البسابس) جمع بسبس ، وكان هذا الاسم يطلق على كتبة التقريرات السرية ، وحدث ذات ليلة أن قام أحد المعتقلين في عنبرنا بحمل بعض الفاكهة إلى أحد الإخوة الذين حرموا من التعامل وتسلل على يديه ورجليه في ظلمة الليل حتى لا يشعر به أحد من كتبة التقريرات ، وأخذ طريقة إلى مكان هذا الأخ وبينما هو يريد العودة إلى مكانه إذ أخرج له أحد البسابس رأسه من تحت الغطاء بعدما رآه يتسلل إلى هناك وغطي رأسه من باب التمويه وصاح قائلا : قف عندك فقد رأيتك واشهدوا يا سكان هذا العنبر على ما فعل هذا ! وتساءلنا ماذا فعل ؟ وقال بأعلى صوته وكأنه ألقي القبض على عصابة من المهربين صاح قائلاً :(تكافل – تكامل – تكامل) .

لقد حبس كل من المتسلل والمتسلل إليه فما ذنبهما ؟

أما ذنب المتسلل لأنه ما زال يحمل بين جنبيه نفسا خيرة ، وأما ذنب المتسلل إليه لأنه علم ولم يبلغ ! أرأيت أمة مثل هذه الأمة التي تحكم حكما ينزع الرحمة من القلوب ويحطم الإنسانية في الإنسان.!) [1]

دلائل الاصطفاء

لقد ساق الله تعالى ذكر الأنبياء في كتابه الحكيم ، وقص علينا أخبارهم، وبين لنا شمائلهم وأخلاقهم..وكيف سادوا الناس بهذه المكارم؟

لقد اصطفاهم الله على الناس، وكان لهذا الاصطفاء دلائله وبراهينه، التي تجلت في سماتهم النجيبة وأخلاقهم العالية، والتي حددها القرآن حتى يكون لنا منها حظ ونصيب..ولا شك أن هذه المثل العظيمة، تدفع كل محب للأخلاق أن يطالع حياتهم ليرى أبرز ما يميزها، وما هي القيم الرفيعة التي اشتهروا بها وحثوا عليها، وأصلوها في مجتمعاتهم..وها هو القرآن الكريم يكفينا معاناة البحث في دهاليز الدهور، فيخبرنا بصفاتهم التي كان أهمها وأجلها تقديم الخير للناس والبر بهم والسعي لخدمتهم

قال تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) (الأنبياء : ٧٣)

لقد كان أول شيء حثهم عليه ربنا الكريم و أوحاه إليهم هو فعل الخيرات، أي إقامتها بين الناس وتقديمها لهم ، كما أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة لا ينفصلان عن فعل الخيرات، فهي أصل الدين وشعائره التي توقظ ضميرك فيظل حياً على الدوام، فلا يقدم إلى الناس إلا كل خير وبر ونفع.

فهذا موسى عليه السلام وهو الفقير المطارد والجائع المشرد ، يرى بنتين تأخرتا عن السقي، ولم يجدا حولهما رجلاً شهما يسقي لهما، فتحركت فيه نوازع المروءة وتقدم ليسألهما :

(مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (القصص:٢٣)

إنهما لم يطلبا المساعدة ، ولكنه هو الذي تقدم إليها متطوعاً ، لأن مثله لا ينتظر حتى تُطلب منه المساعدة ، وإنما يُبادر هو إليها ..مهما أثقلته الظروف والهموم التي قد تشغل المرء بنفسه عن غيره، وتحمله في قوارب الحزن ليتجنب الحياة ومن عليها..بل إن هذه الهموم الثقال التي أهمت نفسه وشتت حياته.. لو نظرنا في أسبابها لوجدنا أن الذي جره إليها ، إنما هو حبه للخير ونصرته للضعيف وإنصافه للمظلوم في وجه الظالم المتجبر.!

لقد استغاث به الضعيف فلم يتركه حتى نصره وتسبب في قتل المصري المعتدي وأصبح موسى (فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)، كان هذا حاله.. حال إنسان مطارد خائف، يتوقع الشر في كل خطوة، ثم هو حذر مترقب، يلتفت خلفه لأوهى الحركات وأخفاها.

وعاهد موسى نفسه بأنه لن يكون ظهيرا للمجرمين، ولن يتدخل في المشاجرات بين المجرمين والمشاغبين ليدافع عن أحد من قومه، وفوجئ بنفس الرجل الذي أنقذه بالأمس وهو يستغيث به ليخلصه من ظالم آخر في عراك آخر..فصرخ موسى في وجهه وقال إنك لغوي مبين ، فظن المشاغب أن موسى يريد أن يبطش به فأعلن سره

---

[1] مذكرات الشيخ عبد الحميد كشك

على الناس ، فانتشر الخبر في أرجاء المدينة، فأسرع إلى الخروج من مصر، قبل أن يتعرض للقصاص.!
وحينما أرسله الله وأخاه هارون إلى فرعون، وقفا يخاطباه في شأن بني إسرائيل ويطلبان منه أن يحررهم ويطلق سراحهم ويكف عن استعبادهم واستضعافهم وتسخيرهم.. فقال الله تعالى :
فـ(أْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)(طه:٤٧)
ولكن فرعون أبى أن يستجيب وأخذ يذكر موسى بما قد مضى من عطفه وإنعامه عليه ، وإحسانة له وجميله في تربيته ورعايته ..
قال تعالى: (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (الشعراء:١٨-١٩)
فرد عليه موسى بقوله: (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ، فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء ٢٠-٢٢)
وكلام موسى قيل على جهة الإنكار، أي أتمن علي بأن ربيتني وليدا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، أي ليست بنعمة، لأن الواجب يقتضي ألا تقتلهم ولاتستعبدهم ، فإنهم قومي فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص.؟!
وكذلك نبي الله (شعيب) يُعنىَ بهموم الناس ويتبنى مشكلات المستضعفين من قومه، وكان يخاطب المستكبرين في شأنهم فيما حكاه الله تعالى على لسانه: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ،فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الشعراء:١٧٨-١٨٣)
ويوسف عليه السلام كان يؤدي واجبه نحو زملائه وهو في السجن ، فكان محسناً لهم، قائماً على رعايتهم.. مما دفع صاحبيه أن يطمئنا له ويستأنسا به ويقولا: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف:٣٦)
بل حمل في نفسه مصائر الناس ومستقبلهم المنذر بالخطر، فعرض خدماته متطوعاً في السنين العجاف التي نبأت بها رؤية الملك، ليقوم بتوزيع المواد الغذائية بخبرة وعدالة فينقذ الناس من هذا الخطر المحدق:
قال تعالى: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (يوسف:٥٥)
وهي دعوة لكل من يرى من نفسه قدرة على خدمة الناس أن يبادر بتقديم المساعدة، ولو أن يطلب ذلك بنفسه ولا ينتظر حتى يطلب منه.. (واقتراح يوسف عليه السلام ، إنما هو إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عَرَضاً من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها)[1]

---

[1] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور

وهذا إبراهيم أبو الأنبياء كان معروفاً بكرمه وجوده ، حتى أنه كان لا يأكل إلا بضيف..لقد كان أكرم البشر في زمانه على الإطلاق قال تعالى :
(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)(الذاريات: ٢٤-٢٨)
ومعنى (ٱلْمُكْرَمِينَ) جمع مكرم، وهو الذي يقع عليه الكرم من غيره، والفاعل مُكرِم والمفعول مُكرَم، فوصف الملائكة بأنهم مكرمون..والذي أكرمهم هو (سيدنا إبراهيم حينما أعدَّ لهم طعاماً وباشر خدمتهم بنفسه لا بعبيده، وجعل امرأته تشاركه في خدمتهم، مع أن المرأة مستورة وأكرمهم بأن بادرهم بالتحية..ثم إنه لم يقدم لهم الطعام الحاضر، إنما أكرمهم وذبح لهم عجلاً مرة وصفه بأنه سمين، ومرة وصفه بأنه حنيذ ،وهذا كمال في الوصف، فهو سمين في ذاته، أي: ليس هزيلاً في تكوينه وهو حنيذ، والحنيذ هو أفضل أنواع الشواء عندهم، فهو من حيث طريقة طهيه حنيذ مشوي، وهذا منتهى الإكرام)[٢]
إنهم ثلاثة من الغرباء غير معروفين لديه ولم يرهم من قبل ، ولم تكن له بهم علاقة أو معرفة ..فلا هم أقرباؤه ولا أصحابه، ومع هذا جاء بهم واستضافهم في بيته وأكرمهم بأفضل ما عنده من طعام..وهذا من عظيم حبه لإكرام الناس ..من عرفه منهم ومن لا يعرفه.
وهكذا كان أنبياء الله ليسوا رهباناً في صوامعهم أو زهاداً في الصحاري والمغارات، يناجون ربهم ويبتهلون له بعيداً عن الخلائق يهيمون في أشواقهم في عزلة موحشة..لا ..لم تكن حياتهم أو رسالتهم على هذا التصور القاصر، وإنما كانت رسالتهم تعلن كل يوم عن مضمونها وموضوعها ، فإنها جاءت من أجل الناس وإسعادهم وخيرهم..وإنها(منهج متكامل، تتعاون عباداته، وشعائره، وتكاليفه الفردية، والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية، تعود كلها على البشر.. غاية تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس، ويتكافلون في الخير، والصلاح، والنماء.. وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد.
إن حقيقة التصديق بالدين، ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحول في القلب، يدفعه إلى الخير، والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالاً، تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار)[١]

لا تحقرن معروفك !

مهما كان حجم هذا المعروف فقد يجعل الله فيه نجاتك ، فلا تستصغرن معروفك أبداً فلعل الله تعالى يكتب لك السعادة والفلاح بهذا القليل الذي تستقله ، لقد نادى رسول الله ﷺ بالإنفاق على تجهيز الجيش فيأتي رجل من فقراء المسلمين بحفنة من التمر ، ما وجد غيرها ليحملها في كفه، ويأتي بها إلى الرسول العظيم ، ويتغامز الناس في

---

[٢] خواطر الشعراوي
[١] سيد قطب ، في ظلال القرآن

المسجد ماذا تعني هذه الحفنة ؟ وهل تقدم أو تؤخر؟ أما رسول الله ﷺ فلم يقل له: أما وجدت غير هذا ؟أو قال له :نحن في غنية عن حفنتك ، وإنما قال له: آجرك الله فيما أعطيت وبارك الله لك فيما أبقيت)

وهو معنى الاستصغار الذي لم يكن له وجود في حياة العظماء والمصلحين والبنائين فـ (مهما كان المرء فقيرا فإنه يستطيع أن يعطي شيئا لمن هو أفقر منه، إن أصغر موظف لا يتجاوز راتبه مئة وخمسين قرش، لا يشعر بالحاجة ولا يمسه الفقر إذا تصدق بقرش واحد على من ليس له شيء، وصاحب الراتب الذي يصل إلى أربعة جنيهات لا يضره أن يدفع منها خمسة قروش ويقول: هذه لله ، والذي يربح عشرة آلاف من التجار في الشهر يستطيع أن يتصدق بمئتين منها في كل شهر) [٢]

وقال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: ٧ – ٨)

والخير مهما قَلَّ فهو عند الله محبوب، وفي مُحكَم التنزيل: (وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (التوبة: ١٢١)

وقال ﷺ: (بينَما رجلٌ يمشِي بطريقٍ وجَد غُصنَ شوكٍ على الطريق فأخَّرَه، فشَكَر الله له فغفَر له) متفق عليه

وجاء عند أبي داود: (نزَع رجلٌ لم يعمَل خيرًا قطُّ غصنَ شوكٍ عن الطريق؛ إمَّا كان في شجرةٍ فقطَعَه فألقاه، وإمَّا كان موضوعًا فأماطَه، فشكَر الله له بها، فأدخَلَه الجنَّة)

وهذا نبأ البغي معلوم ومعروف فعنه ﷺ: (بينما كلبٌ يطيف برَكِيَّة قد كاد يقتُلُه العطَش، إذ رأَتْه بغيٌّ من بَغايا بني إسرائيل، فنزَعَتْ مُوقَها (أي: خفها) فاستَقَتْ له به، فسقَتْه إيَّاه، فغُفِر لها به) متفق عليه

وهذا رجلٌ من الأُمَم السابقة أنبأ عنه ﷺ فقال: (تلقَّت الملائكة رُوحَ رجلٍ ممَّن كان قبلَكم، فقالوا: أعمِلتَ من الخير شيئًا؟ قال: لا، قالوا: تذكَّر، قال: كنتُ أُداين الناسَ فآمُر فِتياني أنْ يُنظِروا المُعسِر، ويتجوَّزوا عن المُوسِر، فقال الله - عزَّ وجلَّ -: تجوَّزوا عنه) متفق عليه

وفي لفظٍ عند مسلم: قال الله تعالى: (أنا أحقُّ بذا منك، تجاوَزُوا عن عبدي)

ويأتي رجلٌ إلى النبي ﷺ قد امتلأ نشاطًا، وتحرَّكت همَّته للمسابقة في أبواب الأعمال الصالحات، فيسأل النبيَّ ﷺ عن المعروف فيأتيه الجواب: (لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أنْ تُعطِي صلة الحبل، ولو أنْ تُعطِي شِسعَ النَّعل، ولو أنْ تَنْزِع من دَلوِك في إناء المُستَسقِي، ولو أنْ تنحِّي الشيءَ من طريق الناس يُؤذِيهم، ولو أنْ تَلقَى أخاك ووجهُك إليه مُنطَلِق، ولو أنْ تلقى أخاكَ فتُسلِّم عليه، ولو أنْ تُؤنِس الوَحشان في الأرض) رواه أحمد بسند صحيح

والمقصود بالوَحشان: الغريب، وإيناسُه أنْ تَلقاه بما يُؤنِسه من القول والفعل الجميل.

ومما حفظت في دراستنا الأزهرية وذكره أبو نعيم في الحلية قول الحسن البصري ﷺ : (يا ابن آدم إنك ناظر إلى عملك، يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئا

---

[٢] من مقال للشيخ علي الطنطاوي

وإن هو صغر، فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقرن من الشر شيئا فإنك إذا رأيته ساءك مكانه)

ولعل الأفعال اليسيرة التي تستصغرها أعيننا وعقولنا يكون فيها ومنها خير عظيم لا قبل لنا به، بل ربما يكون منها سعادتنا في الدنيا والآخرة، ولكننا لا ندرك ..وإليك هذا الموقف البسيط الذي كان له ما بعده من خير عظيم، فهذا فلبيني يعمل في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية لم يحدثه أحد عن الحور العين ولا أنهار الجنة ولا حميم جهنم، ولكنه يقول : إن سيارته تعطلت فاضطر للذهاب بسيارة أجرة للعمل في مقر عمله في حي في أطراف الرياض ذلك الوقت، وعند خروجه ظهرا وفي درجة حرارة تتجاوز ٤٥ درجة لم يستطع أن يجد سيارة أجرة، فاضطر للمشي على جانب الطريق متمنيا مرور سيارة ما، ولم يكن له أن يتوقف، فلا شجرة يستظل بها ولا جدار يستند إليه، لذلك فالمشي هو أفضل الحلول.

فجأة توقفت سيارة خاصة يقودها سعودي وعرض توصيله، لم يكن السعودي يتكلم الإنجليزية ولم تكن عربية الفلبيني جيدة، ولكنها كانت كافية في أن يفهم أن الرجل يرغب في إيصاله .

يقول الفلبيني إن السعودي أطفأ مكيف السيارة، كنت غاضبا من ذلك(يقول الفلبيني)ولكني لا أستطيع أن أتذمر، فهذا الرجل يساعدني بتوصيلي على الأقل.

ولكن بعد دقائق قام الرجل بتشغيل جهاز التكييف، استغربت ذلك ولكني لم أعلق، وبعد وصولنا لمنطقة مأهولة مقارنة بمكان عملي أشار لي السائق أنه سيتجه شمالا، فأشرت له أن ينزلني لأني سأتجه في اتجاه آخر، شكرته وأنا أنزل من السيارة ولكن لم أستطع إلا أن أسأله لم أطفأت التكييف ثم أعدت تشغيله؟ وفوجئت برده حيث فهمت مما قال: إنني كنت أتصبب عرقا فخشي أن أصاب بلفحة هواء فأمرض، لذلك انتظر حتى جف عرقي وارتحت فقام فأعاد التشغيل.

كان هذا أمرا شغل تفكير الفلبيني لأيام، كيف يحرص عليه شخص لا يعرفه أكثر من حرصه على نفسه، وأسلم هذا الرجل لأنه قابل مسلما سمحا لدقائق في حياته، ولكنه قلب حياته - وربما آخرته- رأسا على عقب.

إن هذا التصرف اليسير الذي يفوح رقة وذوقاً دفع الرجل لاعتناق الإسلام ، في الوقت الذي لو سلكت في طريق هدايته بآلاف المواعظ والخطب لربما لم يستجب لك ، أو أنك سهرت بجواره الليالي والأيام تنصحه وتدعوه لما كنت لتأتي بمثل هذه النتيجة التي أثمرت عملاً صالحا خير للمرء منا من حمر النعم ، أو خير من الدنيا وما فيها حسب ما أشار الحديث النبوي الكريم.

ولقد قرأت مرة قصة شاب سافر للدراسة في اليابان في العاصمة طوكيو وفي ليلة شتائية تساقطت الثلوج الباردة والمطر الشديد ، فلم يجد سوى مظلة صغيرة بيد عجوز يابانية تحتمي بها، وما أن رأته المرأة العجوز حتى جذبته نحوها ليحتمي معها من زخات الثلوج التي غمرت المكان.. وشيئا فشيئا راحت تسحب غطاء من النايلون زودت به سترتها لكي تغطي رأسها القصير الأبيض.. ثم تدفع المظلة نحو الشاب الغريب الذي بدا مرتجفا بعد أن فاجأه شتاء طوكيو القارس.

يقول: أصبحت السيدة خارج المظلة تماما.. وكلما حاولت دفعها نحوها أبت.. وتعللت أنها تحتمي بقطعة من النايلون الشفاف.. وعند مفترق الطريق أصرت على أن تمضي لسبيلها، مبقية المظلة لهذا الغريب.
يضيف: راقبتُ السيدة الطاعنة في السن تنسل رويدا رويدا تحت الثلوج حتى اختفت، ولم تلتفت إلى الوراء..! لقد هزني الموقفُ من الأعماق
وتأمل قوله : (هزني الموقف من الأعماق) ..فهذا الموقف البسيط من سيدة طاعنة في السن، أدى لأن يعيد الشاب حساباته ويغير موقفه من بلاد وثنية لا تدين بالإسلام ..يشعر فيها بالأمان حينما يرى ويشاهد العطف الإنساني وهو يمارس عليه شخصياً ..كما لا يمكن له مهما مرت به السنين أن ينسى هذا الصنيع الراقي والذي لا يحسن من صورة امرأة عجوز لا يعرف عنها شيئاً، وإنما جمل صورة اليابانيين جميعاً في ميدان الذوق والإنسانية.!
العقلاء دائما لا يمررون الصغائر ولا يستهينون بها وكما يقولون : معظم النار من مستصغر الشرر ..!
(فهناك من الصغائر ما تكون له أكبر النتائج، فقد يقتل الجراح مريضه إذا لم يعن بصغائر العملية ، وقد يشيد أحد المهندسين جسراً عظيما سرعان ما ينهدم لأنه أهمل النظر في شيء كان يبدو في غاية التفاهة ، ولابد أنك سمعت عن النار تشب من مستصغر الشرر، ولكنك لو أردت لسمعت عن أناس مرضوا أو ماتوا، لأنهم دعوا إلى وليمة وكان الطباخ قد أهمل الآنية وطبخ وبها مقدار صغير من زنجارة النحاس ، ولو أردت أيضا لسمعت عن خراب عائلات يرجع إلى عوائد صغيرة اعتادها رب البيت أو ربة البيت ما كان يظن أحدهما أنها كبيرة الأثر إلى هذا الحد..والسيجارة الأولى التي يدخنها الشاب ليؤكد بها بلوغه طور الرجولة تبدو صغيرة غاية في التفاهة ، لكنها إذا صارت عادة تملكت صاحبها في سن الشيخوخة حتى لو حسب بعد ذلك ما أنفقه في التدخين لبلغ الآلاف من الجنيهات، والكأس الأولى التي يشربها الشاب مجاراة لإخوانه وإثباتا لرجولته وتمدينه قد تكون بعد ذلك سببا لخراب عائلته إذا تملكته عادة الإدمان.)[1]
وفي ميدان الاستهانة بالصغائر يعرض لنا الدكتور (مصطفي محمود) رحمه الله عرضاً رائعاً يخيفنا من الصغائر ويجعلنا نقدر الخطر منها قبل غيرها من كبائر الأمور، ويفهمنا أن التقييم يجعل المرء حكيما في تصوراته وتقديره للأشخاص والأمور فيذكر في كتابه القيم الشيطان يحكم: (نقول عن واحد أنه اتفه من ذبابه . . هل فكرت ماذا يمكن أن تصنع الذبابة ؟ إن ذبابة واحدة تافهة ، يمكن أن تحمل على أرجلها الدفتيريا والسل والدوسنتاريا وشلل الأطفال والكوليرا ويمكنها أن تبيد أمة وتفنى جيلاً ، وتقلب دفة النصر في معركة .. تفعل كل هذا وهى ذبابة !إن ميكروباً لا يرى بالعين قتل في سنة ١٩١٩م أكثر من عشرين مليون ضحية !وهو لا يعدو أن يكون ميكروبا لا يرى ..!وهذا الكيميائي الذي يكتب بحثا في العفن..لا تتهمه بالجنون والتفاهة فالعفن ليس شيئا تافها ..ألم يخرج لنا البنسلين ؟ وما أتفه الذرة..إنها لا ترى بأكبر ميكروسكوب، وهى ليست سوى فرض من فروض الكيمياء ..أليس كذلك..؟

---

[1] في الأدب والحياة - سلامة موسى- بتصرف

ومع ذلك فإن تلك الذرة المفترضة هي التي أنهت الحرب العالمية الثانية وجعلت اليابان تركع وتخسر الحرب، والذي يقول عن أي شخص إنه تافه ، لأنه لم يفعل في نظره شيئا ذا بال .. فإنما يدل على جهله هو نفسه أولا .. فمن يدرى ماذا يفعل هذا غدا .. قد يكون مثل (مندل) الذي لم يكن يفعل شيئا سوى تلقيح أزهار حديقته والتأمل في نسلها ثم اكتشف قوانين الوراثة !لكل شئ في هذه الدنيا خطره مهما كان ضئيلا .. وقد تكون أنت جندي اليوم وقائد المعركة غدا ..(النمرود بن كنعان) هو أحد أربعه حكموا العالم .. ومات بسبب بعوضه دخلت في انفه ولم ينجده كل حرسه وجنده وعتاده .

لا تحقرن صغيرة وإن ضعفت ** إن البعوضة تدمى مقلة الأسد

و(الاسكندر) المقدوني الذي دوخ العالم،لم يعد إلى بلاده بسبب لدغة بعوضه .. فقد مات بالملاريا أثناء عودته من الهند ولا أحد يعرف أين دفن، فقط : لا تقل على أحد إنه تافه .. احترم أي أحد مهما صغر شأنه .. الطفل .. و زبال الطريق .. وعامل المقهى.. و الفقير والمسكين.. ومن لا حيلة له ولا صولجان في يده ..أنت بالاحترام لن تخسر شيئا وستكسب قلوب الناس .. إذا فعلت هذا فإنك سوف تخطو أول خطوة لتكون رجلًا حكيما.)

وفي الجاهلية كانت الحرب المؤلمة تقوم بين القبائل وتستمر لسنوات وسنوات لأتفه الأسباب ،كما حدث بين قبيلتي عبس وذبيان، والتي لم تكن أسبابها شيئاً ذا بال ، لتؤدي لكل ما أدت إليه من حروب وعداء وقتل وتخريب بين الفريقين، فكثيرا ما نحتاج للحكمة في نظرتنا للأشياء ، وكثيراً ما نندم إن أهملنا التريث والتأني ولم نتجاوز ما توهمته أعيننا.. والعين هي أكثر جوارح الإنسان خداعاً تستطيع بسهولة أن تخدعها وتمنحها ما تشاء أنت من المعاني ، فلا تصدق العين في كثير مما ترسله إلى عقلك من إشارات وإيماءات ..تكشف في النهاية خطأها وانحرافها..

وأكثر ما تخدعنا أعيننا في تقييم الأشخاص من حولنا..فلو رأيت رجلاً طويلا فارها متزينا أنيقا نظيفاً أكبرته وأعظمته واستحليت النظر والحديث إليه والتأمل في هيئته ..ولعل هذا الجمال ينطو على نفس خبيثة وشخصية حقيرة الصفات والفعال، لا يباريها الشيطان قبحاً وشراً..!

انظر لهذا الشيخ الذي خدعته عينه عن حقيقة هذا الأديب النابغة وكيف دهش واستاء حينما أغفل موهبته وخفي عليه شخصه؟

وهي الحكاية الطريفة التي حدثت للأستاذ الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله في مقتبل عهده بالتدريس لنتعلم منها أول ما نتعلم أن لا نستهين بالأشخاص ولا نعاملهم بأحجامهم وأجسامهم مهما صغرت ..فحينما كان يعمل في العراق سنة ١٩٣٦ نقل مرة من بغداد إلى البصرة إثر خصومة بينه وبين مفتش دخل الصف فسمع الدرس، ثم شرع ينتقد درسه فقال له الطنطاوي : ومن أنت يا هذا ؟ ودار بينهما ما دار..ثم كتب الطنطاوي عنه مقالة يهجوه فيها، فاستقال الرجل و(طار) إلى بلده، ونقل هو عقوبة له إلى البصرة.

ولما وصل إليها دخل المدرسة ، وسأل عن صف (البكالوريا) بعد أن نظر إلى لوحة البرنامج، ورأي أن الساعة حانت لدرس الأدب، وتوجه إلى الصف من غير أن يكلم أحدا أو يعرفه بنفسه.
فلما دنا من باب الصف وجد المدرس، وكان كهلا بغداديا على أبواب التقاعد، يخطب التلاميذ يودعهم وسمعه يوصيهم (كرما منه) بخلفه الأستاذ الطنطاوي، ويقول هذا وهذا ويمدحه...
فقال الطنطاوي في نفسه: إنها مناسبة طيبة لأمدحه أنا أيضا وأثني عليه، ونسي أنه حاسر الرأس، وأنه يحمل معطفه من الحر على ساعده، ويمشي بالقميص وبالأكمام القصار، فلما دنا للباب قرعه قرعا خفيفا، وهم بالدخول؛ فالتفت إليه المعلم الشيخ وصاح: إيه زمال وين فايت؟ (والزمال هو الحمار في لغة البغداديين) فنظر الطنطاوي في نفسه وأخذ يتساءل هل أذني طويلتان؟! هل لي ذيل ؟! فقال: شنو ما تفتهم (تفهم) أما زمال صحيح! وانطلق المعلم الكهل بـ(منولوج) طويل فيه من ألوان الشتائم مما لا يعرفه المشتوم، ويقابل الطنطاوي كل هذه الشتائم بابتسام، ثم قال له: تعال نشوف تلاميذ آخر زمان، وقف احك شو تعرف عن البحتري ، حتى تعرف أنك زمال ولاّ لا ؟!
فوقف الطنطاوي وتكلم كلاما هادئا متسلسلاً ، بلهجة حلوة، ولغة فصيحة، وبحث وحلل وسرد الشواهد وشرحها، وقابل بينه وبين أبي تمام، وألقى درسا قويا بليغاً..!
والطلاب ينظرون مشدودين، ممتدة أعناقهم، محبوسة أنفاسهم، ونزل المدرس المسكين عن كرسيه، وانتصب واقفاً، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما من الدهشة، ولا يملك أن ينطق، والطنطاوي لا ينظر إليه حتى قرع الجرس...فقال له: من أنت؟ ما اسمك؟ فقال: علي الطنطاوي!
وكان موقفاً محرجاً أصيب فيه المعلم بدهشة عقدت لسانه وتفكيره.
فكن حذرا من الصغائر ، فقد تأتيك منها العاقبة ، وترى منها مالم يكن يخطر على بالك وفكرك ، ولا تستهين في باب المعروف بصغيره ، فبسمة في وجه أخيك قد تجر عليك كثيراً من رضا الله عليك في الدنيا والآخرة..فكن حذراً من الصغائر فقد تأتيك منها العاقبة ، وترى منها مالم يكن يخطر على بالك وفكرك ، ولا تستهين في باب المعروف بصغيرة ، فبسمة في وجه أخيك قد تجر عليك خيرا عظيما حينما تصادق قلباً رحيما محبا للبشر..!

المنكسرون

تغنت وسائل الإعلام الغربية بما فعله البابا (فرنسيس) حين أتاح لـ ١٥٠ مشرداً أن يتجولوا في الفاتيكان بدعوة منه وقال الفاتيكان: إن هؤلاء المشردين سيحصلون على جولة خاصة ومميزة لمتاحفه وكنيسة (سيستين) ، حيث أقام لهم البابا منشآت خاصة لهم للإستحمام فيها، وسيدخلون عبر مدخل مخصص للأساقفة والموظفين ويسيرون عبر نزل الضيافة حيث يعيش البابا نفسه، ثم يحصلون على مشاهدة مميزة للباحة الخلفية لأبرشية القديس بطرس وحدائق الفاتيكان، وستغلق مبكرا كل المتاحف التي يزورها نحو ستة ملايين شخص سنويا مقابل ١٦ يورو على الأقل للفرد ، حتى

يتمكن المشردون من الحصول على معاملة مميزة في كنيسة (سيستين) بلوحاتها الجدارية الشهيرة لمايكل أنجلو.
وجعل (فرنسيس) الذي عرف في موطنه في (بوينس ايرس) بلقب (قسيس الأحياء الفقيرة) لزياراته المتكررة للمناطق العشوائية ..الاهتمام بالفقراء بين مقدمة أولوياته خلال فترة توليه منصب البابوية
وما يقاس هذا الفعل ، بما كان من إنسانية عمر وعاطفة عمر ومواقفه التي لم يكن لها مثيل في دنيا الناس، ولا في دنيا الاحساس، وإذا كان البابا قد اتخذ قراراً إنسانيا من برجه العاجي، فإن عمر ﷺ تحرك بنفسه ففعل ما لم يكن في الحسبان ..!
يقول أسلم مولى الفاروق رحمه الله: خرجنا مع (عمر بن الخطاب) إلى حرة وأقم حتى إذا كان بصرار إذا نار، فقال: يا أسلم، إني لأرى هاهنا ركبًا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان أيتام، وقدر منصوبة على نار، وصبيانهايتضاغون.
فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فقالت: وعليك السلام، فقال: أَدْنُو؟ فقالت: ادْنُ بخير أو دَعْ، قال: فدنا، وقال: ما لكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال: فأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ماء، أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر.
قال: رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟! قال: فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، فقال: احمله عليّ.
فقلت: أنا أحمله عنك، فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة، لا أم لك، فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذري علي وأنا أُحَرِّك لك، وجعل ينفخ تحت القدر، ثم أنزلها فقال: ابغني شيئًا، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها: أطعميهم وأنا أَسْطَح لهم (أي أَبْسُطه حتى يَبْرُدَ) فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيرًا، كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيرًا، إذا جئت أمير المؤمنين، وجدتني هناك إن شاء الله ثم تنحى عنها ناحية، ثم استقبلها فربض مربضًا، فقلت: إن لك شأنًا غير هذا، فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدءوا، فقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت.
وفي رواية أخرى: يا أسلم، أتدرى لم ربضت حذاءهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي.
ولم يفت شاعر النيل أن يسجل هذه الحادثة النبيلة بنظمه الرفيع حيث قال:

و من رآه أمام القدر منبطحا ** والنار تأخذ منه وهو يذكيها
و قد تخلل في أثناء لحيته ** منها الدخان وفوه غاب في فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على ** حال تروع لعمر الله رائيها
يستقبل النار خوف النار في غده ** والعين من خشية سالت مآقيها

لقد أوصى الله تعالى بالأيتام خيراً ، وعني القرآن بقضيتهم في وقت مبكر ونوهت الآيات بأمرهم فقال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ) النساء:٣

وقال أيضاً: (لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ) البقرة : ١٧٧

وقوله تعالى (فَأَمَّا اليَتِيم فَلاَ تَقهَر) الضحى: ٩

قال ابن كثير : (فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه وتلطف به ، وكن لليتيم كالأب الرحيم)

وقال تعالى ممتدحا من يحنون عليه ويطعمونه : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) الإنسان: ٨

قال القرطبي : أي يطعمون الطعام على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له.

(ومما يلفت النظر أيضا أن الله سبحانه وتعالى ذكر لفظ اليتيم في القرآن الكريم ثلاثًا وعشرين مرة، وفي ذلك إشارة واضحة للمسلمين للانتباه والوقوف وقفة جادة أمام هذه الفئة وأمام احتياجاتها، والمشاكل التي قد تواجهها سواءً أكانت معنوية أم مادية أم اجتماعية أم غير ذلك) [١]

وأراد رسوله الكريم أن تشفق قلوبنا، وتتولد مشاعرنا نحو هذه الشريحة المنكسرة الضعيفة، التي تفقد العائل والمعين .. فقد جاء إليه رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له: (إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح برأس اليتيم) رواه احمد والبيهقي

وقال ﷺ : (أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيْمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُما) رواه البخاري

و عن بشير بن عقربة الجُهني قال: (لقيت رسولَ الله ﷺ يومَ أُحد فقلت: ما فعل أبي؟

قال: (استُشهِد، رحمةُ الله عليه)، فبكيت، فأخذني فمسح رأسي وحملني معه وقال: (أما ترضى أن أكون أنا أباكَ، وتكون عائشة أمَّكَ؟)[١]

، وعندما بلَغ النبيَّ ﷺ عن طريق الوحي ، خبرُ استشهاد القادة الثلاثة في مؤتة؛ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رَوَاحة، انطلق ﷺ إلى بيت جعفر بن أبي طالب، قالت أسماءُ بنت عُمَيس زوجة جعفر: دخَل عليَّ رسول الله وقد دبغت أربعين منيئة[٢]، وعجنت عجيني، وغسلت بنيَّ ودهنتهم ونظَّفتهم، قالت: فقال رسول الله ﷺ: (ائتيني ببني جعفر)، قالت: فأتيتُه بهم، فتشممهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما يبكيك، أبلَغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: (أُصِيبوا هذا اليوم)، قالت: فقُمْت أصيح، واجتمع إليَّ النساء، وخرج رسول الله إلي فقال: (لا تُغفلوا آلَ جعفر من أن تصنَعوا لهم طعامًا؛ فإنَّهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم)

وظلت هذه الوصايا خالدة في ضمير الأسلاف ، فلم يعرف الأيتام أمة من الأمم قدر فيها أمرهم وعني فيها بحالهم، وأسبغت عليهم سحائب الرحمات كما وجدوا وعرفوا

---

[١] من مقال لدكتور /خالد النجار – موقع صيد الفوائد

[١] حياة الصحابة، ص٤٩٠، ج٢.

[٢] المنيئة: الجلد ما دام في الدِّباغ.

في أمتنا ، ولم يحظ تراث شعب من الشعوب كما حظي تراث المسلمين من العناية باليتيم ورعايته والإحسان إليه، وها هو علي بن أبي طالب ﷺ حينما طعنه الغادر الأثيم كانت وصيته الرائعة لولديه الحسن والحسين والتي لم يكن لها نصيب من متاع الدنيا وأغراضها وإنما صبت كل تركيزها في الآخرة وسبل النجاة إليها ..فما قال لهما : (قولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة)

وتأمل بأي شيء كان الصديق منهم يوصي صديقه ففيما كتبه أبو الدرداء ﷺ إلى سلمان الفارسي ﷺ: (يا أخي، ارحم اليتيم، وأدنه منك، وأطعمه من طعامك)

وقال كذلك محذِّرًا من دعوة اليتيم: (إياك ودعوة المظلوم ودعوة اليتيم، فإنهما تسريان بالليل والناس نيام)

وفي طبقات الحنابلة : توجه رجل بسؤال للإمام (أحمد بن حنبل) رحمه الله فقال: (كيف يرق قلبي؟) فقال الإمام أحمد: (ادخل المقبرة وامسح رأس اليتيم)

ورحم الله القائل وهو يحذر من ظلم اليتيم:

واتقوا الله في ضعاف اليتامى * وبما يُستحل غير الحلال
واعلموا أن لليتيم وليًا * عالمًا يهتدي بغير سؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه * إن مال اليتيم يرعاه والي

ومدح أحد الشعراء رجلا مشهوراً بالعطاء والصدقة وبذل المعروف، والإحسان إلى اليتيم، وهو سعيد بن سلم فقال يرثيه:

كم يتيم نعشته بعد يتم * وفقيرًا أغنيته بعد عدم
كلما عضت النوائب نادي * رضي الله عن سعيد بن سلم

وكان ابن عمر رضي الله عنهما (إذا تغدى أو تعشى دعا من حوله من اليتامى، فتغدى ذات يوم فأرسل إلى يتيم فلم يجده وكانت له سُويقةُ محلاة يشربها بعد غدائه فجاء اليتيم وقد فرغوا من الغداء وبيده السويقة يشربها، فناولها إياه، وقال: خذها، فما أراك غُبنت.) حلية الأولياء

وروى أحمد في الزهد من طريق همام عن جار لهم يُكنى أبا يعقوب قال: (كان هاهنا رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له: صُواب (بضم الصاد المهملة) كان لا يصنع طعامًا إلا دعا يتيمًا أو يتيمين)

ولما ولي (عمر بن العزيز) يرحمه الله الخلافة ازدحم على بابه الشعراء وكان منهم جرير، فلم يأبه بهم عمر ولم يلتفت إليهم ووافق جرير قدوم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي وكان ورعًا فقيهًا، فقال له جرير: اذكرني للخليفة، قال عون: إن رأيت لك موضعًا فعلت، فدخل عون على عمر فسلم عليه ثم حمد الله وذكر بعض كلامه ومواعظه، ثم قال: هذا جرير بالباب.. فأذن لجرير فدخل عليه، فقال يا أمير المؤمنين، إني أخبرت أنك تحب أن توعظ ولا تطرب، فَأْذَنْ لي في الكلام، فَأَذِنَ له، فكان مما قال:

كم بالمواسم من شعثاء أرملة * ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
أُذهبتْ خَلْقتُهُ حتى دعا ودعت * يا رب بارك لطر الناس في عمر
من يعدك تكفي فقد والده كالـ * فرخ في الوكر لم ينهض ولم يَطِر

قال الراوي: فترقرقت عينا عمر ثم جهز إلى الحجاز عيرًا تحمل الطعام والكسى والعطايا، يُبث في فقرائهم..
وفي البداية والنهاية :خرج ابنه وهو صغير يلعب مع الغلمان، فشجه صبي منهم فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا امرأة تقول : (إنه ابني وإنه يتيم فقال لها عمر: هوني عليك، ثم قال لها عمر: أله عطاء في الديوان؟ قالت: لا، قال: فاكتبوه في الذرية، فقالت زوجهُ فاطمة: أتفعل هذا به وقد شج ابنك؟! فعل الله به وفَعَل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية فقال عمر يرحمه الله: (ويحك، إنه يتيم وقد أفزعتموه!)
وفي حلية الأولياء روى (أبو عبد الله اليربوعي) قال: (نازعت عتبة الغلام نفسه لحمًا فقال لها: اندفعي عني إلى قابل، فما زال يدافعها سبع سنين، حتى إذا كان في السابعة أخذ دانقًا ونصف إفلاس فأتى بها صديقًا له من أصحاب عبد الواحد بن زيد خبازًا، فقال: يا أخي، إن نفسي تنازعني لحمًا منذ سبع سنين وقد استحييت منها، كم أعِدُها وأُخلِفها، فخذ لي رغيفين وقطعة من لحم بهذا الدانق والنصف، فلما أتاه به إذا هو بصبي، قال: يا فلان، ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك؟ قال: بلى، قال الراوي: فجعل عتبة الغلام يبكي ويمسح رأسه، وقال: قرة عيني من الدنيا أن تصير شهوتي في بطن هذا اليتيم، فناوله ما كان معه ثم قرأ: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)
وقد وبخ الله سبحانه كفار قريش لتنكرهم لليتيم في قوله تعالى: (كلا بل لا تكرمون اليتيم) (الفجر: ١٧)
كما أمر عز وجل بحفظ أموال الأيتام ، وعدم التعرض لها بسوء ، وعدَّ نهبها ومساسها من كبائر الذنوب وعظائم الأمور ، ورتب عليه أشد العقاب ، قال تعالى: (إنّ الذِينَ يَأكُلُونَ أَموالَ اليَتَامى ظُلماً إنّما يَأكُلُون في بُطُونِهِم ناراً وسَيصلَونَ سَعِيراً)(النساء:١٠)
وقال تعالى: (ولا تَقربُوا مَالَ اليَتِيمِ إلا بِالتِي هِيَ أحسَنُ حَتّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ وأوفُوا بِالعَهدِ إنّ العَهدَ كَانَ مَسئُولا)(الإسراء : ٣٤)
وقال تعالى: (وأن تقوموا لليتامى بالقسط)(النساء: ١٢٧)
وعدَّ الرسول ﷺ أكل مال اليتيم من السبع الموبقات.. حيث قال: (اجتنبوا السبع الموبقات ومنها .. وأكل مال اليتيم)
ويسوق لنا الإمام (الذهبي) في كبائرهقصة فيها موعظة وحكاية على لسان ذلك الذي أعطى ظهره للأيتام وأعرض عن حاجتهم فيقول : كنت في بداية أمري مكبا على المعاصي وشرب الخمر ، فظفرت يوما بصبي يتيم فقير فأخذته و أحسنت إله و أطعمته و كسوته و أدخلته الحمام، و أزلت شعثه و أكرمته كما يكرم الرجل ولده بل أكثر ، فبت ليلة بعد ذلك فرأيت في النوم أن القيامة قامت و دعيت إلى الحساب و أمر بي إلى النار لسوء ما كنت عليه من المعاصي فسحبتني الزبانية ليمضوا بي إلى النار ، و أنا بين أيديهم حقير ذليل يجروني سحبا إلى النار، و إذا بذلك اليتيم قد اعترضني بالطريق، و قال : خلو عنه يا ملائكة ربي حتى أشفع له إلى ربي فإنه قد أحسن إلي و أكرمني ، فقالت الملائكة : إنا لم نؤمر بذلك، و إذا النداء من قبل الله تعالى يقول :

خلوا عنه فقد وهبت له ما كان منه بشفاعة اليتيم وإحسانه إليه قال : فاستيقظت و تبت إلى الله عز و جل و بذلت جهدي في إيصال الرحمة إلى الأيتام.).

ولهذا قال أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ: خير البيوت بيت فيه يتيم يحسن إليه و شر البيوت بيت فيه يتيم يساء إليه و أحب عباد الله إلى الله تعالى من اصطنع صنعا إلى يتيم أو أرملة وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم و كن للأرملة كالزوج الشفيق و اعلم كما تزرع كذا تحصد : معناه أنك كما تفعل كذلك يفعل معك أي لا بد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم أو امرأة أرملة..

و قال داود عليه السلام في مناجاته : إلهي ما جزاء من أسند اليتيم والأرملة ابتغاء وجهك ؟ قال : جزاؤه أن أظله في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي، معناه ظل عرشي يوم القيامة.

أما حكاية المرأة العلوية فكان فيها ما يدهش الألباب ويدعو النفوس للمسارعة في إكرام اليتيم، واقتناص فرص الخير وعدم التريث في أمرها حتى تضيع..كان أحد العلوين نازلا ببلخ من بلاد العجم و له زوجة علوية و له منها بنات، وكانوا في سعة ونعمة، فمات الزوج و أصاب المرأة وبناتها بعده الفقر والقلة ، فخرجت ببناتها إلى بلدة أخرى خوف شماتة الأعداء ، واتفق خروجها في شدة البرد فلما دخلت ذلك البلد أدخلت بناتها في بعض المساجد المهجورة، ومضت تحتال لهم في القوت فمرت بجمعين : جمع على رجل مسلم و هو شيخ البلد و جمع على رجل مجوسي و هو ضامن البلد فبدأت بالمسلم و شرحت حالها له وقالت : أنا امرأة علوية و معي بنات أيتام أدخلتهم بعض المساجد المهجورة و أريد الليلة قوتهم فقال لها : أقيميعندي البينة أنك علوية شريفة ،فقالت : أنا امرأة غريبة ما في البلد من يعرفني ، فأعرض عنها فمضت من عنده منكسرة القلب، فجاءت إلى ذلك الرجل المجوسي فشرحت له حالها وأخبرته أن معها بنات أيتام وأنها امرأة شريفة غريبة، وقصت عليه ما جرى لها مع الشيخ المسلم، فقام و أرسل بعض نسائه و أتوا بها و بناتها إلى داره، فأطعمهن أطيب الطعام و ألبسهن أفخر اللباس و بتن عنده في نعمة و كرامة.

قال: فلما انتصف الليل رأى ذلك الشيخ المسلم في منامه كأن القيامة قد قامت ،وقد عقد اللواء على رأس النبي ﷺ، وإذا القصر من الزمرد الأخضر ، شرفاته من اللؤلؤ و الياقوت، وفيه قباب اللؤلؤ والمرجان فقال : يا رسول الله لمن هذا القصر ؟ قال لرجل مسلم موحد فقال : يا رسول الله أنا رجل مسلم موحد ، فقال رسول الله ﷺ: أقم عندي البينة أنك مسلم موحد قال : فبقي متحيرا فقال له ﷺ: لما قصدتك المرأة العلوية قلت أقيمي عندي البينة أنك علوية فكذا أنت أقم عندي البينة أنك مسلم : فانتبه الرجل حزينا على رده المرأة خائبة، ثم جعل يطوف بالبلد و يسأل عنها حتى دل عليها أنها عند المجوسي فأرسل إليه فأتاه فقال له : أريد منك المرأة الشريفة العلوية و بناتها..

فقال : ما إلى هذا من سبيل وقد لحقني من بركاتهم ما لحقني ، قال : خذ مني ألف دينار وسلمهن إلي فقال لا أفعل فقال : لا بد منهن فقال : الذي تريده أنت أنا أحق به و القصر الذي رأيته في منامك خلق لي أتدل علي بالإسلام ؟ فوالله ما نمت البارحة أنا و أهل داري حتى أسلمنا كلنا على يد العلوية ، ورأيت مثل الذي رأيت في منامك، وقال لي رسول الله ﷺ: العلوية و بناتها عندك ؟ قلت : نعم يا رسول الله قال : القصر

لك و لأهل دارك وأنت وأهل دارك من أهل الجنة ..خلقك الله مؤمنا في الأزل قال : فانصرف المسلم و به من الحزن و الكآبة ما لا يعلمه إلا الله، فانظر رحمك الله إلى بركة الإحسان إلى الأرملة و الأيتام ما أعقب صاحبه من الكرامة في الدنيا .!

نداء للأثرياء

لما صكت الدراهم .. صاح إبليس صيحة الفرح وقال لأتباعه :

(الآن وجدت ما استغني به عنكم ..إنه المال الذي يفرق بين الإبن وأبيه والأخ وأخيه، والزوج وزوجه)

إلى هذا الحد الكبير كان المال سبيلاً من سبل الإغراء والإغواء ..بل سلاحا من أقوى أسلحة الشيطان لتمزيق الروابط البشرية؟! ولم لا.. وهو الذي يغير النفوس ويوغر الصدور، بل هو الذي إن تعلقت به النفس جردها من كل قيمة، ومحا عنها كل فضيلة ، لتصير نفساً بهيمية ، أبعد ما تكون عن الكمال ، فتمتليء جوانحها بالأنانية وحب الذات ، فلا تبالي بالمنكوبين والمحتاجين والمرضى والمتألمين، بل يجذبها تياره لتصل إلى درجة منكرة ، فلا تبالي من أي طريق جاء هذا المال ..أمن الحلال هو أم من الحرام؟!

وصدق الله تعالى: (وتحبون المال حباً جماً)

ولقد دعانا الله تعالى أن ننتصر على هذا المال فلا يتوغل في قلوبنا حبه، ذلك الحب الذي لو أفسحنا له الطريق لتحول إلى شهوة موحشة، تهون معها كل قيمة في الدنيا..ويصبح الفرد منا لا عزيز لديه إلا الدينار والدرهم ، فلا يرعوي لدين أو ضمير أو قيم..!

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة:٢٥٤

وقال حاثاً رسوله الكريم :

(قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً) (إبراهيم:٣١)

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بقوله:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) البقرة:٣

وقال تعالى: (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) البقرة:٢٧٤

وجاء في التفسير الميسر : (الذين يُخْرجون أموالهم مرضاة لله ليلا ونهارًا مسرِّين ومعلنين، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، ذلك التشريع الإلهي الحكيم هو منهاج الإسلام في الإنفاق لما فيه مِن سدِّ حاجة الفقراء في كرامة وعزة، وتطهير مال الأغنياء، وتحقيق التعاون على البر والتقوى؛ ابتغاء وجه الله دون قهر أو إكراه)

لقد رأى الفضيل بن عياض ولده يوماً وهو يمسح كفة الميزان بطرف ثوبه، فتعجب وسأله لماذا :فرد عليه قائلا :حتى لا أزن للمسلمين غبار الطريق فبكى الفضيل وقال : إن عملك هذا يا بني عندي أفضل من حجتين وعشرين عمرة.!

إنها التربية الرشيدة التي ساقت هذا الولد لهذه الدرجة الأنيقة من الورع فيأبى ظلم الناس أو نهبهم من أجل المال والجشع في تحصيله حتى ولو بالغبار..لأن الخوف من الله إذا ملأ القلوب ووجلت منه النفوس.. كانت هي بذاتها حارسة لأمر الله في الصغيرة والكبيرة..!

إن الأثرياء في محنة عظيمة..لو أنهم تركوا أنفسهم يقودها الهوى ويأسرها حب المال، وقد شاء الله أن يزخر تاريخنا بأناس ملكوا الثروة، ولكنهم لم يهملوا أنفسهم لتكون ضعيفة هشة أمام لعاب الثروة التي أنفقوها في سبيل الله بنفوس راضية وأيد منبسطة، وتأتي ذكراهم في الوقت الذي يمنع الكثيرون أموالهم عن المحتاجين ليبذلوها على شهواتهم التي لا تشبع نهمتها ولا ترتوي غلتها..

يقول الشيخ (الغزالي) رحمه الله : (إنه ليحز في النفس أن يكون لدينا أغنياء يبذلون الألوف المؤلفة في إشباع الشهوات ..وتجف أصابعهم عن بذل شيء في حماية الأرض والعرض والإيمان والشرف)

ويقول الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله :

(إن الذي ينفقه الأغنياء على الترف والسرف يكفي لتعليم كل ولد في البلدة .. وإطعام كل جائع .. وإسعاف كل فقير..! إن عرساً واحداً من أعراس الموسرين الكبار تكفي لإطعام عشر عائلات شهراً كاملاً.. ! وما ينفق على أكاليل الزهر في الجنائز وطاقات الورد في الأفراح يفتح كل سنة مستشفي مجانية للفقراء .. ! وأثمان علب الملبس في الموالد تنشئ كل سنة مدرسة تتسع لخمسمائة تلميذ..! وما تُشترى به هذه الثريات الفخمة وهذه التماثيل.. وما ينفق في الولائم والحفلات.. وما يصرف في الملاهي والموبقات يكفي لسد حاجة كل محتاج ..!وأنا لا أقول : دعوا هذا كله .. فإنكم لن تفعلوا، ولكن اجعلوا من أموالكم نصيباً لهؤلاء المعذبين في الأرض، زكوا عن أموالكم فإنكم لا تدرون هل تدوم لكم أو تذهب عنكم ؟، وهل أخذ أحد على الدهر عهداً أن لا تحول عنه الحال.. وأن لا يذهب من يده المال، وإذا وثقتم ببقاء المال..فهل تثقون ببقاء الصحة ؟! أتأمنون الأمراض والنوازل والنكبات ؟ فاستنزلوا رحمة الله بالبذل..وادفعوا عنكم المصائب بالصدقات، إن الناس درجات أمَا تفرح إن أعطاك صاحب الملايين ألف ليرة ؟ فأعط أنت المعدم عشر ليرات ، إن الليرات العشر له كالألف لك ، و الألف عند (المليونير)كالعشر عندك، و الثوب القديم الذي تطرحه قد يكون ثوب العيد عند أناس آخرين ، فلماذا لا تسرهم بشيئ لا يضرك و لا تُحس فقده ؟و لو كل امرئ يعطي من هو أفقر منه لما بقي في الدنيا محتاج) [1]

إن الفقر هوة سحيقة تعصف بالمجتمعات حينما تنكب بها، وتصير بؤرة للجهل والمرض وهو المناخ الملائم لكل أشكال الجريمة والفساد المادي والأخلاقي حيث تنتشر الجرائم ويزيغ الفساد وتشيع العلل والأدواء، من السرقات والرشوة والفساد والإرهاب والنصب والاحتيال ، ويتأخر العقل والرقي والتقدم ، وتضعف الأخلاق والفضائل والانتماء للدين ورقابة الضمير ، يحدث كل هذا حينما يسود الفقر منبت الرذائل والعلل.

---

[1] من حديث النفس – الشيخ علي الطنطاوي

هناك من الأثرياء من يهوى السياحة ويخرج لبلاد الله ليمتع عينه ويرى جمال الطبيعة والبلدان الغريبة، وهناك من يسيح ليرى طبائع الشعوب المختلفة ويغذى معارفه بالجديد والمجهول ، ويتعلم ما كان يجهله، ويصور من المشاهد ما لم يقف عليه من قبل.. كل هذا.. يسعى السائح إلى تحصيله، بينما لا نجد في السائحين من يسعى لتنمية شعوره الإنساني وإحساسه بإخوانه في البشرية..لماذا لا يتعرف السائح فيما يتعرف على مأساة الفقراء والمحتاجين في كل بلد يزورها ، يرى ويشاهد هؤلاء المعذبين الذي تقهرهم ظروف الحياة ويعصف بهم الجوع ويضنيهم شظف العيش، فلم ينالوا ما نال غيرهم من بني الإنسان من حظوظ الدنيا.

لقد كان رسولنا العظيم أرحم بالناس من أمهاتهم وآبائهم، بل إنه آثرهم حتى على أهله وذويه، ففي ظل الأزمة المهلكة، يقدم القوت للفقراء والمساكين ، ويمنعه عن ابنته وزوجها.. فاطمة التي هي أحب أهل الأرض إلى قلبه الشريف، ما أهمه جوعها وضيق عيشها حينما جاع الفقراء والمساكين.!

وزوجها الذي فداه بنفسه يوم الهجرة ..ما أهمه شعوره بالعجز وضيق حاله.!

عن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين فقال على لفاطمة ذات يوم: (والله لقد سنوت (أى استقيت من البئر) حتى اشتكيت صدري وقد جاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه، فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يداي (أي تقطعتا من كثرة الطحن)، فأتت رسول الله ﷺ فقال: ما جاء بك أي بنيه؟

قالت: جئت لأسلم عليك واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال على: ما فعلت؟ قالت: استحيت أن أسأله فأتيا جميعا النبي، فقال علي: يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: لقد طحنت حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبى وسعة فاخدمنا،فقال والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم .. ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم. ثم قال ألا أخبركما بخير مما سألتمانى؟ قالا: بلى، قال: كلمات علمنيهن جبرائيل: تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبران عشرا، فإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين مرة واحمدا ثلاثا وثلاثين مرة وكبرا أربعا وثلاثين، قال على ﷺ فوالله ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ)[1]

فما أروع العدالة وما أجل الفداء..! ولكنك ما أن تصرف بصرك عن هذه الصورة المثالية ، لترمي بها في واقع الحياة حولك..حتى تنفجع قريحتك بالواقع المرير، فترى هؤلاء الجشعين المنهومين الذين ينهبون ثروات الشعوب وأقوات الناس ولا يشبعون أو يقنعون.. يغترفون من حقوقهم ليل نهار بلا وازع من دين أو ضمير .. يكنزون الذهب والفضة، ويستوفون أرصدتهم في البنوك، ويقتطعون الأراضي والمنتجعات، ولا يشعرون بمعاناة من حولهم، يفعل أحدهم ذلك، ليغني أبناءه ويسعدهم على حساب الملايين المنهوكة المعذبة ..ويالها من قسمة ضيزى ..حينما تهلك هذه الجموع الكبيرة.. من أجل فرد أو فردين.!

---

[1] رواه البخاري ومسلم

وبقدر العظمة النبوية التي آثر فيها النبي ﷺ أهل الصفة على ابنته فاطمة وزوجها..بقدر عظمة علي رضي الله عنه ، الذي لم يغضب من فعل صهره أو يسخط على زوجه من فعل أبيها فيقول لها:
أبوك منعنا ولم يعطنا..كما يفعل الناقصون من الأزواج.
وإنما استجاب لفعله ﷺ ورضي بإيثار أهل الصفة الذين تطوى بطونهم من الجوع..!
إن الرجل منا قد يبغض ولده لعقوق أو جفاء فيكون تصرفه حياله بهذا التصرف ، ولكن ..هل كانت فاطمة عاقة لأبيها أو كان زوجها يحرضها على خصومته؟ لا هذا ولا ذاك فلقد كانت فاطمة أحب الناس إلى قلبه الشريف وهي أم الحسن والحسين مهجة فؤاده وربيع قلبه.
وأما أبوهما فهو ربيبه، وأول من آمن به ونصره وفداه يوم الهجرة بروحه، وعرض نفسه للموت والهلاك دونه..ومع هذه الرتب العليا، والدرجات الشاهقة.. يمنعهم ويُعطى أهل الصفة الفقراء حتى يسد جوعتهم.
فما أرحمك يا رسول الله! وما أسعد المسلمين بك!
نعرف كثيرا ممن تحكموا في رقاب العباد أصيبوا بالأنانية وحب الذات، فترى الواحد منهم يغني نفسه وأهله وأفراد عائلته وقبيلته على حساب الناس..فيترك الفقراء تقتلهم الحاجة ، والمساكين يؤلمهم العوز، أما هو ومن يُنسبون إليه، فبطونهم متخمة من الغنى الفاحش الذي لا يشبعون منه أبداً.
بل ما أسعد الفقراء في ظل الإسلام! الذي حماهم ودافع عنهم، وجعل لهم هذه الأولية.
وكيف لا..ودولته هي أول دولة في التاريخ قاتلت من أجل حقوق الفقراء ، وأول دولة تجيش الجيوش لاستجلاب حقوقهم من مانعي الزكاة.. ،لقد كانت الأمة التي عرف فيها الأشقياء معنى الحياة وقيمة الإنسان، إنها كانت أول دولة أقامت معنى الكرامة الإنسانية ووجد المعذبون فيها نجاتهم وحياتهم.

ثقافة التطوع

يوماً بعد يوم تطالعنا الأنباء والصحف عن أثرياء الغرب الذين يهبون أموالهم للعمل الخيري ..يفعلون ذلك بدافع الإنسانية والضمير البشري ..وربما لم يتوفر لهم ما توفر لنا كمسلمين من دين ونصوص تحث على البذل والعطاء والبر بالإنسان ..شيء رائع أن تتأصل القيم الإنسانية بين الناس ، وتقوم عليها حياتهم، وإلا تحولت حياة جافة قاسية..
إن الحكومات الرشيدة هي التي تسعى جاهدة أن توجد روح التطوع وثقافة البذل والعطاء وخدمة الآخرين في شعوبها، حتى توجد الترابط والتلاحم بين مواطنيها..
تخيل ..(المنظمات الخيرية في كل أقطار العالم العربي لا تتجاوز مجموع المنظمات الخيرية في ولايتين فقط من الولايات المتحدة الأمريكية! . وقد تعدت المنظمات الخيرية في أمريكا مليون جمعية ومنظمة غير ربحية..كما نجد الكثير من المنظمات في الغرب قامت بسبب حادث ما؛ طفل مات بالسرطان فقام والداه بإنشاء مؤسسة لدعم أبحاث السرطان، شاب قتل بسبب الكراهية والعنصرية فيقوم زملاؤه بإنشاء

مؤسسة للقضاء على العنصرية، هذه من الأمثلة البسيطة، أما الجمعيات الخيرية فعددها كبير ومهول..
ففي الولايات المتحدة: (١،٥١٤،٠٠٠) جمعية خيرية.
وفي بريطانيا فيها: (٣٥٠،٠٠٠) جمعية خيرية.
وفي فرنسا فيها (٦٠٠،٠٠٠) جمعية خيرية.) [١]
وفي لقاء لي بمدير مكتب (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) في بريطانيا الأستاذ (بقاسم كحللش) أكد لي أن (اهتمام الغرب بالعمل الخيري كبير ومتطور ، ففي بريطانيا على سبيل المثال يتم تنشئة الطفل الصغير في المرحلة الابتدائية على ثقافة العمل الخيري ، حيث يتم التنسيق بين الجمعيات الخيرية والمدارس بكافة مراحلها ، وتنظم مختلف هذه الجمعيات سلسلة محاضرات للطلاب لتعريفهم بنشاطها ودورها وطبيعة عملها ، فمنها التي تساعد الأيتام ، ومنها التي تساعد الفقراء والمحتاجين ومنها التي تساعد المرضى ، ومنها التي تحافظ على البيئة ، وفي نهاية المحاضرة يضعون صندوقاً كبيراً ليقوم كل طالب بوضع جنيه في هذا الصندوق أحضره من والديه ، ولعل هذا الأسلوب يعد نوعاً من التربية والتنشئة التي تؤصل للعمل الخيري في نفوس الأجيال التي تكبر وينمو في داخلها الشعور بالآخرين، والإحساس بهذا التوجه النبيل ، وحب العمل الخيري والإنساني ، الأمر الذي يترك أثراً إيجابيا فاعلاً على المجتمع بأسره.
وكم كانت حماسة الأستاذ (كحللش) قوية وهو يتحدث عما يجده في بريطانيا ، وقد دعا البلاد العربية والإسلامية أن تحذوا هذا المنحى، وتهتم بتفعيل ثقافة التطوع والعمل الخيري في حياة المواطنين وخاصة بين الأجيال الناشئة ، حتى تدرك هذه القيمة المجتمعية كما أدركها الغربيون حينما نشأوا عليها أبناءهم ، خاصة وأن ديننا وقيمنا تحثنا على ذلك وتأمرنا به..
لقد كان الناس سلفنا يغرسون في نفوس الناشئة حب الخير والبر بالناس والإحسان إلى المساكين والضعفاء ، والبر بالمرضى والفقراء .
لقد كانت جدة الكاتب (خالد القشطيني) تحكي له ما كان يتندر به ويتعظ به في صغره ومن هذه الحكاوى : أن لصا مجرما قتل ٩٩ شخصا وأراد التوبة، قال له الشيخ: كيف يغفر الله لك بعد كل ما فعلت؟ ولكن اذهب للصحراء وانصرف للعبادة واطلب الرحمة من الله، خذ هذه العصا، واغرسها في الرمل، ستعلم أن الله قد غفر لك عندما تخضر وتينع، فعل ذلك وقضى الأيام والشهور من دون نتيجة، يئس من رحمة الله وقرر العودة من حيث أتى، لكنه سمع صراخ امرأة تستنجد. هرع لمصدر الصوت فرأى رجلا يحاول اغتصابها، فكر في الأمر، لقد عاهد الله على التوبة وعدم التعرض لأحد، لكنه تحير أمام هذا المشهد، فكيف يترك هذا الرجل يغتصب هذه المرأة البريئة؟ قال لنفسه:لقد قتلت ٩٩ شخصا.. فليكونوا مائة شخص»، هجم على الرجل وقتله وأنقذ المرأة وقال لها: اذهبي ولا تعودي لهذا المكان، ثم عاد لمكانه، ويا للعجب!.. وجد العصا يانعة بالأوراق والزهور، لقد غفر الله له ذنوبه.. فقالت له

---

[١] من مقال لفوزية الخليوي بتصرف

جدته: يا ابني ياخالد، عمل صالح واحد ينفع الناس يعطيك مرضاة الله ويمحو كل ذنوبك.!

والشاهد هنا أنه استمع من جدته التي كانت تروي له حكايات إنسانية ومشاهد خيرية أثرت في نفسه وطبعتها على الخير، وهو نفس ما وجده المفكر الكبير (مالك بن نبي) الذي وجد نفسه وهو في الطفولة يفعل فعل المحسنين نتيجة لتأثير الحكاوي التي تطرحها عليه جدته حيث يقول في مذكراته : (وفي ظهيرة يوم الجمعة أخذت نصيبي من (الرفيس) وأخذت أقضمه بنهم ولذة ، وفجأة سمعت بباب الدار سائلاً ينادي : أعطوني من مال الله، ولم أكن عندها أكلت من فطيرتي أكثر من النصف ، ومع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحسان وثوابه.)

وهذه الرسالة الإنسانية لا تُسأل عنها الحكومات وحدها، وإنما يناط بها كل إنسان، وهو مسئول أن يغرس معانيها في وسطه الذي يعيش فيه بين أولاده وإخوته وفي البيت والشارع والمدرسة والسوق وفي كل الميادين التي يحتك بها الإنسان ..!

كما تهتم الشركات في الغرب بتفعيل العمل التطوعي بين موظفيها، فتحت عنوان (لنتعلم من الدرس الكندي) كتب الدكتور (خالص جلبي) : (مهندسو الكمبيوتر عملهم طقطقة الكي بورد والتحديق في الشاشات، كل نهارهم تذوي عيونهم وهم أمام شاشات تلمع، والظهور تحدودب، وطنين الأجهزة لا يتوقف بين نت وطباعة وماوس وحفظ وقص، هذا هو عمل التكنوقراط، وخبراء الكمبيوتر في العادة، ولكن شركة الكمبيوتر (spa) خرقت هذا التقليد حين منحت الموظفين يوماً مدفوع الأجر للنزول من مكاتبهم، ومفارقة كمبيوتراتهم لينزلوا إلى الشارع متطوعين مساعدين في العمل الاجتماعي، سألت محمداً الذي يعمل في الشركة ومقرها مونتريال ماذا عملتم هذا العام؟ قال ذهبنا إلى الحقول الخضراء، وتسلطنا على نوع من الشجر نخلص التربة منه لأنه يؤثر على شجر (القيقب) وزرعنا محله شجر (القيقب) كم كانت الغرسة؟ قال: لا.. هي صغيرة ولا تحتاج لعمق كبير، كندا هي أم وأبو الغابات، وفيها من الأشجار جنتان مدهامتان. ومع أنها تحصد كثيراً منها، وبيوت الخشب واستعمالاته هائلة عندهم، ولكنهم لا يقطعون شجرة إلا وزرعوا بدلاً عنها خمساً، وهكذا فالبلد مغطى بثوب قشيب، رداؤه من سندس واستبرق، مذكرا بجنة وعدها الله عباده المتقين كانت لهم جزاء ومصيرا، قلت له: وفي العام الماضي ماذا فعلتم؟ بعد أن أقفلتم خلفكم الكمبيوترات؟ قال كلفونا أن نذهب إلى مدارس للأطفال فندهن الجدران والغرف، في المرة السابقة تعلموا الصباغة والدهان، والحالية تعلموا الزراعة والبستنة، إنها فكرة خلاقة أن ينتزع الإنسان من روتين عمله اليومي، ليعمل عملا جديدا مستحدثا، صباغا ونجارا وسباكا وعتالا وجزارا وبستنجي، هناك من يستهجن مثل هذه التصرفات، وأنها تضييع للوقت، وكيف تنفق الشركة المذكورة أجور يوم كامل، في عمل تطوعي لفائدة أناس لا يعودون عليها بالنفع، إنه فهم اجتماعي عميق عن تبادل الخدمات وبناء المجتمع.)[1]

---

[1] صحيفة الشرق السعودية - من مقال لخالص جلبي بتاريخ ٢٠١٤/١١/٢٥م

واستمع إلى هذا العمل الإنساني الذي حرك المجتمع الأمريكي وتفاعل معه الكثيرون، وكان له آثار جليلة القدر ، ففي أحد الأيام في عام ١٩٨٠م وفي ولاية (أريزونا) ذهب المفتش الجمركي (تومي أستين) ليزور أحد أصدقائه في إحدى المستشفيات ، وبينما هو في ممر المستشفي ، فوجيء بطفل نحيل يصرخ فيه وبشدة ويقول : أنا شرطي سأقبض عليك، ! ابتسم له (تومي أستين) وتعرف عليه، وأخبره أن اسمه (كريستوفر جيمس) فتوجه تومي وسأل عن حالته فأخبروه بأنه يرقد في المستشفي مصاباً باللوكيميا بعد أن يئس الطب في شفائه،.. تحركت عاطفة تومي تجاه الطفل المسكين ، وأدرك حسب صرخته أنه يتمنى أن يكون شرطياَ ذات يوم، ولكنه أدرك قبل هذا أنه لن يحيا ليحقق هذا الحلم..!

توجه تومي إلى أصدقائه من الشرطة واتفق معهم أن يقوموا بزيارة مفاجئة لكريستوفر، وابتهج الطفل كثيراً لزيارتهم ، وقاموا بعد ذلك باصطحابه في جولة في الدورية، وجولة أخرى في الهيلكوبتر ووضعوا له شعار الشرطة على دراجته التي تعمل بالبطارية، وعلى جانب آخر تطوعت اثنتان من أفراد الشرطة ليخيطوا له بدلة شرطي توافق مقاسه وحجمه، وفي اليوم الآخر سلمت لكريستوفر شهادة موقعه (رسمية) ليكون أصغر شرطي متخرج من شرطة (أريزونا) ومنحوه الشعار الذهبي الذي يحمله الشرطة في أمريكا..وبعد ثلاثة أيام رحل كريس، ولم ينته دور الشرطة حتى في وفاته ، بل قاموا بتشييعه في جنازة عسكرية سار فيها أحد عشر ألف متطوع من شرطة أريزونا وغيرهم.!

وللمرء أن يعجب من هذه المشاعر الفياضة التي ملكت هذه القلوب! مما يمنحنا دلالة على كونها سمة مجتمع بأكمله ، جبل أفراده على تكريم الإنسان واحترام مشاعره..وأعجب منه أن يقوم الآلاف من جهاز الشرطة بتأدية هذه المشاعر النبيلة، وهو الجهاز الذي قد يقسو بعض أفراده ويفقدون شيئاً من الرحمة واللين ، بحكم وظيفتهم وممارستهم للعنف ضد المجرمين والخارجين عن القانون ..ولكنها في ظل ذلك لم يفقد أفرادها معنى الإنسانية حينما حققوا لهذا الصغير البائس حلمه وأمنيته قبل أن يموت..!

وبعد أيام من رحيل كريستوفر بدأت الدعوة لمؤسسة باسم (ثمن أمنية) ابتدأت بـ ثلاثين دولار وصارت اليوم مؤسسة خيرية كبيرة لها ٧٧ فرعاً في الولايات المتحدة الأمريكية و٢٧ فرعا خارجها، تقوم على تحقيق أمنيات آلاف الأطفال الذين يهدد المرض حياتهم.

ولك أن تتصور كيف كانت بداية أشهر جامعة في العالم وكيف نشأت؟ إنها جامعة (ستانفورد) فقد حدث في عام ١٨٨٤م وفي مدينة بوسطن الأمريكية أن توقف القطار وخرج منه رجل وزوجته ذوا هيئة فقيرة وملابس رثة متواضعة ..توجها سويا إلى جامعة (هارفارد) الشهيرة ، وطلبا لقاء رئيسها دون موعد سابق ، وألحا في الطلب ولكن السكرتيرة تزمرت ورأت من هيئتهما البسيطة أنهما غير جديرين بلقاء رئيس الجامعة الذي يزخر وقته بالمشغولياتالهامة..ولكي تتفادى إحراجهما أبلغتهما أن الرئيس مشغول ولن يستطيع استقبالهما ..فردت عليها السيدة مباشرة وقالت: سننتظره إذن حتى يفرغ ، ومن جانبها أهملتهما السكرتيرة حتى يصابا بالملل

واليأس ولكن ذلك لم يحدث فهناك إصرار كبير على لقاء الرئيس ، فلم تجد السكرتيرة وسيلة إلا أن تخبر رئيسها بلقائهم ولو لبضع دقائق قبل خروجه من مكتبه حتى ينصرفا لحالهما ، ولكنه يرد عليها بأنه لا وقت عنده للقاء الفلاحين ..فألحت عليه السكرتيرة وبالفعل قبل لقاءهما ، وحينما دخل الزوجان إلى مكتب الرئيس قالت له السيدة إنه كان لهما ولد يدرس في هذه الجامعة لمدة عام ثم توفي في حادث ، وبما أنه كان سعيداً خلال الفترة التي قضاها في هذه الجامعة العريقة ، فقد قررا تقديم تبرع للجامعة لتخليد اسم ابنهما.

لم يتأثر الرئيس كثيراً بما قالته السيدة ..فردّ بخشونة وقال:سيدتي، لا يمكننا أن نقيم مبنى ونخلد ذكرى كل من درس في هارفارد ثم توفي ، وإلا تحولت الجامعة إلى غابة من المباني والنصب التذكارية، وهنا ردت السيدة : نحن لا نرغب في وضع تمثال له ، بل نريد أن نهب مبنى يحمل اسمه لجامعة هارفارد ،ولم يلق هذا الكلام أي صدى لدى رئيس الجامعة ، فرمق بعينين غاضبتين ذلك الثوب القطني والبزة المتهالكة ورد بسخرية :هل لديكما فكرة كم يكلف بناء مثل هذا المبنى، لقد كلفتنا مباني الجامعة ما يربو على سبعة ونصف مليون دولار .!وهنا ساد الصمت لبرهة ظنّ خلالها الرئيس أن بإمكانه الآن التخلص من هذين الزوجين حينما شق أسماعهم بهذا المبلغ الهلامي ، ولكن السيدة استدارت نحو زوجها قائلة له :سيد ستانفورد : ما دامت هذه تكلفت إنشاء الجامعة كاملة ، فلماذا لا ننشيء جامعة جديدة تحمل اسم ابننا ؟ فهز الزوج رأسه موافقاً، ثم غادر الزوجان (ليلند وجين ستانفورد) وسط ذهول وخيبة الرئيس ، وسافرا إلى كاليفورنيا حيث أسسا هناك جامعة (ستانفورد) العريقة التي مازالت تحمل اسم عائلتهما وتخلد ذكرى ابنهما الذي لم يكن يساوي شيئاً لرئيس جامعة هارفارد .

وانطلقت بها الدراسة مطلع العام الدراسي الأول من عام ١٨٩١م في ذكرى وفاة الابن، واستمرت الدراسة فيها مجانية حتى توفي المؤسس عام ١٩٣٠، وقد حصل أكثر من أربعة وخمسين شخصاً من المنتمين لهذه الجامعة على جوائز نوبل ، نظراً للتفوق العظيم الذي تقدمه للعلم البشري خاصة في مجالات التكنولوجيا.

وذكر تقرير هام نشرته الصحف: (أن المجتمعات الغربية تنبهت إلى أهمية ثقافة العمل الخيري فضمنتها مناهجها ومناشطها، حتى نرى أن طالب المرحلة الابتدائية هناك يهب إلى إحضار (علبة خضار) يتم إرسالها إلى أحد المجتمعات التي تعاني من المجاعة، كما أن الإحصاءات توضح أن ٢٢ مليون شخص يشاركون بالعمل التطوعي بشكل رسمي كل عام في المملكة المتحدة، وتبلغ عدد ساعات العمل التطوعي الرسمي ٩٠ ساعة عمل في الأسبوع وتقدر القيمة الاقتصادية للتطوع الرسمي بـ٤٠ مليار جنيه إسترليني سنويا، وتختلف دوافع العمل التطوعي بين المشاركين حيث أبدى ٦ من ١٠ متطوعين أسباب تطوعهم للحصول على مهارات جديدة ونصف المتطوعين استجابوا لنداء العمل والمساعدة، وأبدى ٩٠% من المجتمع الذي تنتشر فيه ثقافة التطوع اتفاقهم على حرص أفراد المجتمع على بعضهم البعض ورفض ٨٠% فكرة أن المتطوع أقل مهارة من الذي يعمل بالأجر، و بلغت قيمة المنح والبرامج التطوعية في بريطانيا ٥٠ مليار جنيه، أما في أميركا فقد بلغ

عدد المنظمات غير الربحية ١,٥ منظمة ، ثلثاها خيرية، و٤٨% منها قائم على أساس ديني، وبلغت قيمة المبالغ المعطاة للمنظمات غير الربحية ١٧٤ مليار دولار، منها ٧٧,٣ مليار تأتي عن طريق أفراد.
وبلغ حجم التبرعات ٢١٢ مليار دولار عام ٢٠٠٢م، ٣٨% منها لأغراض دينية وبلغ عدد المتطوعين ٩٠ مليون في جميع الأعمال الإغاثية والدينية بواقع خمس ساعات أسبوعيا وفي كل التخصصات، وتضم رابطة الجامعات غير الربحية حوالي ١٠٠ جامعة أميركية منها تخصصات للعمل غير الربحي وتخصصات في العمل الخيري..ويعد العمل التطوعي في الغرب وفي أميركا وبعض الدول الآسيوية شريكا فاعلا للقطاع العام والتجاري في برامج التنمية بشكل عام، ويلعب دورا أساسيا في سد ثغرات القطاع العام، وفي الحد من تجاوزات القطاع الخاص وجشعه، وإذا قارنا العمل التطوعي في الغرب بالعمل التطوعي في البلاد العربية نجد أن أعداد الجمعيات التطوعية فيه لا تتعدى عدد الجمعيات التطوعية في ولايتين فقط من الولايات المتحدة)[١]
وجاء في إحدى الإحصائيات عام ١٩٩٤م التي تبرز اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالعمل التطوعي ما يلي :
- تطوع أكثر من ٩٤.٢ مليون شخص.
- كان معدل ما تطوع به الفرد الواحد ٤.٢ ساعة أسبوعيًا.
- مجموع عدد الساعات التي قدمها المتطوعون ٢٠.٥ بليون ساعة.
- كان معدل ساعات التطوع موازيًا لعمل ٩ ملايين موظف.
- بلغ مجموع ما تطوع به من وقت.. قيمة ١٧٦ بليون دولار أمريكي.
- وتقام هناك دورات وندوات عن أهمية هذا العمل، وألفت له العديد من الكتب ويسمى المتطوعون هناك «وعد الأمة» أو «مستقبل الأمة».
بل المذهل أن تجد هذه الاهتمام لتفعيل هذه الثقافة لدى اليهود الذين هم أحرص الناس على حياة، ففي إسرائيل (أكثر من ٣٥٠٠٠ منظمة غير ربحية، تفوق منظمات وجمعيات العالم العربي بأسره! فقد بلغت ميزانية المشروعات التي تدخل في هذا الإطار ١١ مليار دولار في السنة الواحدة.

أثرياؤنا المُحرَجون

قال الرئيس التنفيذي لشركة (فيس بوك) (مارك زوكربيرج) وزوجته إنهما يعتزمان التنازل عن ٩٩% من ثرتهما في أسهم فيس بوك والتي تبلغ قيمتها حاليا نحو ٤٥ مليار دولار لصالح مؤسسة خيرية جديدة في رسالة لابنتهما ماكس التي أنجباها .. ونشر زوكربيرج على صفحته على فيس بوك صورة عائلية مع زوجته بريسيلا تشان وابنتهما ماكس مع منشور بعنوان :رسالة لابنتنا..!
كما سبقهما تبرع رجل الأعمال البريطاني (بريان بوني) بمعظم ثروته لأعمال الخير ، حيث بدأ بريان حياته من الصفر كصبي توصيل في بقالة ، ثم عامل بناء ، ثم تدرب كمهندس وأسس عمله التجاري في مجال الإنشاءات ثم البتروكيماويات ، ثم كرس حياته لجمع المال.

---
[١] جريدة الوطن السعودية ٢٠١٥/١/١٤م

عايش (بريان بوني) محنة زوجه التي عانت من سرطان الثدي مدة ستة أعوام ، فرأى آلامها وعناءها، وبعد أن شفيت تركت هذه المعايشة أثراً في نفسه فصمم أن يبيع ضيعته التي تضم فندقاً فاخراً يضم خمسة وعشرين غرفة بمبلغ (١٦) مليون جنيه استرليني ، وتبرع بالعائد لجمعية خيرية تعنى بضحايا السرطان..وانتقل مع زوجته من الفندق الذي ظل يعيش فيه منذ عام ١٩٩٣م إلى منزل صغير جداً في (موربيث) في (نورثمبريا)

ويقول بريان:يعتقد رئيس حساباتي أنني معتوه ولكن لم تعد لي رغبة في الطوب والاسمنت والممتلكات، وكما تقول والدتي فإنك لا تستطيع أن تنام في أكثر من فراش واحد ولا قيادة أكثر من سيارة واحدة في كل مرة، وهناك أشخاص آخرين في حاجة ماسة للعون .

ويمضي بريان قائلا: (أتمنى أن أموت وأنا معدم، لقد أتيت إلى الدنيا بلا مال وينبغي أن أغادرها بلا مال، إننا نعيش في مجتمع الكل يردد فيه "أنا أناأنا" وكان من المهم بالنسبة لي أن أفكر في الآخرين، إنني ارغب في مد يد العون لضحايا السرطان، إن حياتهم مؤلمة للغاية ولذلك فإنني أسعى إلى تسهيلها عليهم).

إن إحساس الرجل بآلام المرضى دفعه لهذا العمل الذي عده البعض جنوناً ، ولكنه في حقيقته مثَّل معاني الإنسانية بكل عناصرها وقيمها..ما أكثر المتألمين في حياتنا! وما أكثر ما نقابلهم به من جمود المشاعر وتبلد الأحاسيس! غير عابئين بأناتهم وآهاتهم..وربما نُعذر في ذلك لفقرنا وقلة حيلتنا، ولكن ما بال الأثرياء ؟ وكيف سيقابلون هذه المسؤولية؟

لقد دعى الملياردير الأمريكي (وارين بافيت) بمعاونة صديقه الملياردير(بيل غيتس) رجال الأعمال والأثرياء، للتبرع بأموالهم في حملة خيرية غير مسبوقة.. ولعل هذا شيئاً فريداً بعض الشيء خاصة وأن المال يدعو المال ، والذين يعيشون في كنفه لا يرون غيره وهو لهم كالماء والهواء ، فغير معقول أن يتنازل الإنسان عن ماله الذي قضى حياته في جمعه..هكذاوفي غمضة عين!

ولكن.. قبل الحكم على هذه الدعوة وأصحابها ، تعالوا لنعرف كيف استقبلها مجتمع الأثرياء بأمريكا؟

لقد استجاب أربعون ملياردير اً أمريكياً وتبرعوا بنصف ثرواتهم للعمل الخيري، ومساعدة المحتاجين والفقراء، ومازالت الحملة مستمرة ، وبعضهم لم يكتف بالنصف، وإنما فعل كما فعل (وارين وبيل) وتبرع بكل ماله.

تأتي هذه الحملة كأرقى عمل إنساني في القرن الحادي والعشرين، والتي انطلق فيها أصحابها من عميق إحساسهم بمسؤوليتهم المجتمعية تجاه الفقراء والمعوزين.

وما أروع أن تقوم مثل هذه الحملة في كل بلدان العالم! فيبرهن الأثرياء أن إنسانيتهم حاضرة متقدة، مهما شغلتهم الأموال والصراع عليها.

ولكم تمنيت في غمرة هذا الخبر الذي أثلج صدر الإنسانية ، أن يكون مصدر هذه الدعوة من بلادنا العربية ، ومن أثريائنا المسلمين الذين يجدون قرآناً يدعوهم للبذل والإنفاق، ودينا يوقظ فيهم مشاعر الإشفاق.

لا شك أن الدعوة أصابتهم بحرج شديد، لا يخرجون من حمرته إلا بدعوة مماثلة.

وها أنا ذا في كل صباح أتلهف صحفنا العربية لعلي أجد فيها نبأً عن أثريائنا ، أو دعوة تحاكي دعوة (بافيت وغيتس) ولكن لا أجد .
ولا يزال الغرب مصراً على أن يقدم لنا كل يوم دروساً ومثلاً في الإيثار ..!
فقد رمتنا الأنباء أن رجلاً بريطانياً يدعى (نيكولاس كراس) ٨٣ عاما، تبرع بالدم ٥٧ مرة، وأبدى مزيداً من الإيثار من خلال التبرع بإحدى كليتيه لشخص غريب، ليصبح أكبر بريطاني يفعل ذلك..وقرر نيكولاس وهو مدير مؤسسة خيرية سابق من هامبشاير، التبرع بكليته لهيئة الصحة الوطنية في بريطانيا بعد وفاة زوجته عام ٢٠١١، عندما وجد أن لديه المزيد من الوقت للعمل التطوعي.
إن الخبر يُجبر قارئه بتقدير هذا الفعل العظيم والغير مسبوق..كما أنه يدع العقل في حيرة مفرطة ، يضرب سؤالاً على سؤال! ، فالرجل لم ييأس.. ولم تتبدد من ذاته روح العطاء، حينما رحل عنها الشباب، وإنما ظلت متقدة متوهجة، تستطيع أن تمنح وتُؤثِر..وتؤكد لصاحبها ما يريده من شعوره بذاته وقيمته وحاجة المجتمع إليه، وأنه مازالت لديه القدرة ليقدم شيئاً للخير والإنسانية والفضيلة.
كثير من الناس حينما تُصيبهم هذه السن الطاعنة، يقول أحدهم في نفسه : لست مطالباً بشيء، ومهمتي أن أرتاح في هذه العمر الحرج، وأجد الرعاية والعناية ، فما بقي من عمري أقل بكثير مما فات.!
لكن (نيكولاس).. كان بعيداً عن هذا العجز، رافضاً أي هاجس يقود لليأس،كما أن خاطره لم يحدثه بأنه كان يشغل مديراً لمؤسسة خيرية، وأنه قد أدى دوره ورسالته في العمل التطوعي..وتبرع بالدم ٥٧ مرة، وهو رقم لم ينجزه الكثيرون من البشر. .لم يتسرب إليه شيء من هذه الخواطر المحبطة، لأن لديه إيمان قوي بقدرته على العطاء ، وخدمة المسيرة الخيرية.
لقد كان مدهشاً أن يكون هذا الإيثار العظيم ، والحدث الأخلاقي الفريد الذي قام به نيكولاس ، لا ليفدي به قريباً منه أو محباً له!، وإنما لشخص لا تربطه به علاقة أو معرفه! وهو غاية الإيثار ومنتهى الشعور بآلام مجتمعه وظروفه ومشكلاته، وما يعانيه آلاف المرضى البريطانيين الذين يموت منهم ٣٠٠٠ كل عام لاحتياجهم الشديد لمتبرع يمنحهم كلية سليمة تمد في أعمارهم وتذهب عناءهم وأوجاعهم.
ما أحوج المجتمعات لمثل هذه النماذج التي تعطي وتمنح حتى آخر رمق من حياتها!
لم يعرف العالم أديبا عذب نفسه من أجل الفقراء مثلما فعل (تولستوي) ، فقد كانت له زوجة يحبها وأنجب منها ١٣ طفلاً وكانت هذه الزوجة مثقفة ، تعرف عدة لغات ولها نتاجها الادبي وكتبها المطبوعة ، وكانت شريكته في الثقافة كما كانت شريكته في البيت ، يستشيرها في كل أفكاره وأعماله وخيالاته ويملي عليها مؤلفاته ، حتى قال عنها يوما بامتنان: إنها الزوجة المناسبة تماما للكاتب.
وعلى الجانب الآخر كان (تولستوي) ثريا يملك ضيعة بها أراض شاسعة ورثها عن أسرته ، يملكها بما عليها من فلاحين وعمال ، وكانت هذه الثروة الضخمة هي الشرارة التي أفسدت حياته الزوجية وأوجدت شرخاً كبيراً بينه وبين زوجته التي كانت بالأمس أحب الناس إليه!

كان (تولستوي) في شبابه يريد أن يوزع كل ما يملكه على الفلاحين والفقراء ولكنهم ظنوا أنه يريد أن يخدعهم ويمكر بهم فلم تكن تلك عادة النبلاء في ذلك الوقت الذين لا يعرفون غير الاستعلاء والغطرسة ولا يشعرون بآلام الغير..! وأمام هذا الاستنكار عدل (تولستوي) عن فكرته إلى أن راودته الفكرة مرة أخرى وهو في سن السبعين وأصر على تنفيذ ما أرجأه قديما فقد كان يحب البسطاء ويعمل مع الفلاحين في الأرض وكان يرتق حزاءه بنفسه ..(لقد كان (تولستوي) فنانا ومفكرا ولكنه قبل هذا كان إنساناً عميق الانسانية ، وبعد أن قضى شبابا سعيدا ، وفي لحظة باهرة من حياته ، وقف يسأل : لماذا أملك الارض ، ويجوع الفلاحون؟
لماذا آكل أنا في أطباق الذهب وهم لا يجدون ما يأكلون؟
لماذا يعملون هم في الأرض فتتشقق أيديهم ويشرب التراب من عرقهم وأقضي أنا حياتي في كسل شنيع؟!
وفي النهاية تصبح الثمار لي..كل الحصاد لم أزرع منه بذرة واحدة ، ويجيء كعبد أجير لأستفيد منه وأستمتع وحدي ؟هل هو الفن الذي أكتبه سبب ذلك ؟ إن الفن شيء تافه، إنه عبث وترف يفكر فيه الكسالى الذين لا يعرفون معنى الألم..وثار الانسان العظيم في قلب (تولستوي) على الإقطاعي ، وقرر أن يوزع الأرض على الفلاحين)[1]
ولكن زوجته التي كانت نعم الزوجة وقفت في وجه رغبته لأنها كانت تخشى على مستقبلها ومستقبل أبنائها وردت كل ما وزعه بالقوة من الفلاحين ، وكان صراعا مريرا بينها وبينه ، مما اضطره أن يسخط عليها ويفر منها ويعيش وحده طريدا شريدا حتى مات.
وعودة أخرى لشخصية (بيل غيتس) ومحاولة جديدة للتعرف على الجانب الإنساني في نفس رجل من أغنى أغنياء العالم، وكيف استطاع في ظل المادة الطاحنة وانشغاله بالثروة والعمل، أن تتسرب إلى نفسه كل هذه المشاعر بالمبتيلن حتى ينفق عليهم ٥٩% من ثروته الضخمة..ففي حوار أجرته قناة (خدمة البث العام الأمريكية المستقلة) والتي حاولت في ضوء هذا اللقاء أن تظهر الوجه الإنساني والنبيل لبيل ، وأن تبين كيف بلغت أحاسيسه نحو هؤلاء الفقراء والمرضى في العالم ؟! وإلى درجة أن يتبرع بهذا النصيب الكبير من ثروته عليهم ؟!
سأله المذيع اللامع (مويزر) عن مدى شعوره بهؤلاء المرضى وكيف يرى العالم من خلالهم ؟
أجاب غيتس: من المؤكد أنني لن أقدر أبداً على وضع نفسي في حالة هؤلاء الناس الذين ينشؤون في البلدان الأقل نمواً، لقد تولد لدي قليل من الإحساس بذلك من الذهاب إلى هناك والاجتماع مع هؤلاء الناس والتحدث معهم،ولذلك ما فكرت فيه هو: أين يمكن لثروتي أن تكون قادرة على أن يكون لها أعظم تأثير؟ وعندما شاهدت ابنتي -ذات السبع سنوات- شريط فيديو لطفل يعاني من صعوبة المشي بسبب شلل الأطفال، كان رد فعلها: (من هو هذا الطفل؟ أين يعيش؟ دعنا نذهب ونساعده، دعنا نذهب ونقابله. ماذا لو أصيب بشلل الأطفال في الساق الأخرى؟) .

---

[1] تأملات في الانسان - رجاء النقاش

سؤال يحيرني؟!

سؤال يحيرني ولم أقف له على جواب شافٍ..فهل يا ترى أجد الإجابة لديك أيها القاريء العزيز..؟!

من قديم وأنا أتساءل كيف لهذه الأمم الغربية، أن تصل لما وصلت إليه من تكريم الإنسان واحترام آدميته، وتقرير حقوقه في مجتمعاتهم..ومع هذا يُهينون ذات الإنسان، ويهدرون آدميته في معاملاتهم مع الشعوب الأخرى؟!

أليس الإنسان هو ذات الإنسان، في قارات العالم وبلدانه..بشحمه ولحمه وعظمه وحسه ووجدانه ؟!

هل يمكن بكل هذه البساطة أن يتجزأ التصور للبشر فنجد منهم من يستحق لقب إنسان، وغيرهم لا يستحقونه؟!

لا شك أنه انفصام في التصور لمعنى الإنسان..وفي غمرة هذه الحيرة، وهذه المفاهيم الكارثية، لا يسعني إلا أن أقول: إن ديننا جعل الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يُفرق بين البشر أسودهم وأبيضهم ، عربهم وعجمهم..وهي القيمة التي يستحيل أن يؤمن بها الغرب أو يطبقها في حياته، لأنهم يرون أن إنسانهم هو الإنسان الذي يتمتع بكل حقوق الحياة والآدمية..أما غيره فلا قيمة له، وغير محسوب على العنصر البشري.!

حتى القانون الدولي حينما وضعوا أسسه وأقروا بنوده ، وضعوها لتكون حكراً عليهم وحدهم، ولا تجوز للأمم الأخرى، فلا يرون أن تُعامل الأمم الإسلامية معاملة مساوية للأمم النصرانية..وفي هذا ينقل الدكتور (عبد الودود شلبي) في سفره القيم (أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية) نقلاً عن الدكتور (حافظ غانم) قوله:

(منذ نشأ القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الأمم الإسلامية خارج نطاقات العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون ، وعلى هذا الأساس ،لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية ، فـ(جروسيس) أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية، و(جنتيلس) هاجم (فرانسوا الأول) ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليم العثماني في عام ١٥٣٥م ومع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين، ومع أنها أعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام ، فقد كانت هذه المعاهدة مرفوضة لأنها مع ملك أمة غير مؤمنة)

والأدهى من ذلك أن تقوم لديهم منظمات لحقوق الحيوان ، قد تُقيم الدنيا وتقعدها إن تعامل أحدهم بخشونة أو قسوة مع حيوان أعجم، بينما الآذان الصُم واللامبالاة المفرطة، تجاه ما يرون من مذابح تطال الإنسانية صباح مساء وعلى أيديهم.!

وفي صحيفة (الشرق الأوسط) هذا الخبر في صفحتها الأخيرة عن البرلمان الإسباني الذي قامت قيامته ليمنع ألعاب ضرب الثور حتى الموت، وقال الخبر:

(على الرغم من تزايد الاحتجاجات في إسبانيا وخارجها ضد اضطهاد الحيوان، وخاصة طريقة معاملة الثيران، فإن البرلمان الإسباني صوت ضد مشروع قرار

يمنع ألعاب ضرب الثور حتى الموت، وكانت بعض المنظمات الإنسانية وجمعيات الرفق بالحيوان قد نشطت في الفترة الأخيرة من أجل منع مثل هذه الألعاب، وأيدتها الأحزاب اليسارية والمهتمة بالبيئة ثم انضم إليها الحزب الاشتراكي، لكن الحزب الشعبي الذي يسيطر على البرلمان بأغلبية مطلقة أحبط هذه المحاولة، بمعارضته مشروع القرار، متعللا بأن هذه الألعاب هي جزء من التراث الشعبي الإسباني..

ورد عضو البرلمان عن الحزب الاشتراكي، (أليخاندرو ألونسو)، قائلاً :إن المسألة ليست متعلقة بمنع الاحتفالات الشعبية وإنما تتعلق بوضع حد للمعاملة السيئة للحيوان، وتساءلت النائبة عن حزب الخضر الكتلاني، لايأورتيث: لا نفهم كيف أن القانون الإسباني يعاقب المسيئين للحيوان، كما هو الحال في معاقبته لكل من يسيء معاملة الكلب، وفي الوقت نفسه لا يعاقب من يسيء معاملة الثور؟!، كما هاجمت الاحتفالات المعروفة باسم احتفالات «تورو دي لا بيغا» القائمة على أساس ضرب الثور حتى الموت، ووصفتها بأنها : احتفالات حقيرة وقاسية وبربرية.

وكان ١٤٠ باحثا وأكاديميا من ثماني عشرة دولة قد بعثوا برسالة إلى البرلمان الإسباني يحثونه على سن قانون يبعد القاصرين عن مشاهدة مثل هذه الألعاب، لما قد تخلفه من آثار نفسية شديدة عليهم، وجاء في الرسالة: إن السياسيين يتحملون مسؤولية كبيرة في بناء شخصية الأطفال النفسية، وفي غرس المبادئ الإنسانية فيهم، ومن هنا يحق لنا أن نتساءل: أي رسالة نرسل لأطفالنا عندما نقول لهم: إن ممارسة العنف ضد الحيوان هي جزء من لذتنا وأفراحنا؟! وكانت قد سبقتها دعوة منظمات إنسانية قامت بجمع ٢٥٦ ألف توقيع من ١٣٥ بلدا لحث البرلمان على منع أي نوع من أنواع الإساءة للحيوان..)

وهكذا أضحى الإنسان في أمم الأرض، لا يرقى أن يماثل الحيوان عند الغربيين فيجد من يدافع عنه أو يفكر في رحمته..هذا الإنسان الذي كرمه الله تعالى ..يُهان ويُذبح ويُنكل به كل يوم، أما الحيوان فيحفونه برعايتهم وتقديرهم ويضمنون له حقوقاً وواجبات..فياله من منطق أعور، وعقل فاسد وتصورات ضالة آثمة.

وهي نفس الدهشة التي أصابت هيكل باشا صاحب كتاب (حياة محمد) ..حيث يروي الأديب الكبير (ثروت أباظة) ما قاله هيكل باشا حينما كان في زيارته حيث قال له: (سأقص عليك قصة كلما رويتها أعجب بأبطالها وحزنت لأنهم كانوا غزاة محتلين ، يراعون العدل مع الأفراد ولا يراعون العدل مع الأمم، ففي يوم من الأيام جاءني استدعاء إلى محكمة الإنجليز العسكرية ، وحمل الاستدعاء ضابطان بريطانيان صحباني في سيارة محترمة إلى المحكمة وجلست في مقاعد المحامين حتى جاء دور القضية، التي طلبت من أجلها، فنودي اسمي ومثلت أمام المحكمة ، وأمسك القاضي بجريدة السياسة وسألني، هل أنت رئيس تحرير هذه الجريدة فقلت : نعم قال أهذا يصح؟ وأشار إلى مقالة قرأت عنوانها فعرفتها ، وكانت مقالة يهاجم فيها د.(طه حسين) الأستاذ (محمد أبو شادي) ، وكان الإنجليز يعتقلونه عند ظهور المقالة فتعجبت ، ما هذا الذي لا يصح؟

إننا نهاجم رجلاً أنتم تعتقلونه، ماذا في هذا ؟ فقال القاضي : في هذا أننا نعتقله، ألا تدري أننا حين نعتقله تصبح كرامته أمانة في أيدينا ، كيف تهاجمون شخصاً لا يملك

الرد عليكم ؟ فقلت في سرعة : من هذه الناحية أنتم محقون وأعدك ألا يتكرر هذا، فقال :شكراً وانصرفت وأنا أتعجب..كيف يكون للإنسان عندهم هذه القدسية ، وتجدهم في معاملتهم للدول قراصنة بلا خلق ولا ضمير على الإطلاق..) [١]
إنها حادثة أثارت العَجب في نفس الأديب الكبير ، و عجز عن تفسير هذه التركيبة المحيرة التي تميز بين البشر في مواطن.. وتهدرهم في مواطن أخرى، مع أنهم نفس البشر .!
ولعلي أقف بك أيها القاريء على شيء أدركته، فهذه الثقافة العنصرية الغاشمة لها جذورها العميقة في تاريخهم فبعضها عقدي وبعضها وضعي..فإذا ما نظرنا للقانون الروماني الذي تُفاخر به أوروبا، حيث كان يطبق على المواطنين الرومان من أبناء روما والجاليات الرومانية المقيمة في الخارج دون بقية السكان، باعتبار أن غير المواطنين الرومان من بقية السكان ليسوا أهلا للوصول إلى هذه الدرجة، والحصول على هذا الامتياز !
إن هذا التناقض أصيل في تاريخ هذه الشعوب ومعتقداتها، وليس وليد اليوم..ورغم هذا القدم لا نجد جواباً شافياً لتفسير هذه الازدواجية في التفكير؟!
كان هناك حوار بين الرحالة والداعية المسلم التتري (عبد الرشيد إبراهيم) وبين أحد الفرنسين الذين التقى بهم في القطار عبر رحلته من أوفا إلى جيلاني.. لقد أصابه عبد الرشيد في مقتل حينما حاول الفرنسي أن ينتقد الشعوب الشرقية ويظهر شيئا من عوارها..يقول عبد الرشيد : (سألني الرجل الفرنسي ما سبب كثرة المعوزين من الفقراء والمحتاجين بين التتار ؟ الشعب الأسير سيكون فقيرا ذليلاً لا يستطيع أن يتصرف بما يملك..والتتار سلالة تركية ، والأتراك يهتمون بالنظافة كثيراً ، وأظن أن قومك التتار لا يهتمون بالنظافة ..؟!
فقال عبد الرشيد: الأتراك العثمانيون يهتمون بالنظافة لأنها من أركان الإسلام، لكننا هنا ومنذ أن تسلط علينا النصارى فنحن قذرين مثلهم..(يقصد الروس)
قال الفرنسي : هل لكم مدارس كثيرة؟ قال عبد الرشيد مدارسنا الابتدائية كثيرة ، وليس بعدها شيء ..الفرنسي : كم عدد الذين يقرؤون ويكتبون منكم ؟ عبد الرشيد:خمسون في المائة أو ستون؟الفرنسي: عظيم أنكم متقدمون على الروس كثيراً، إذن فلماذا لا تؤسسون مدارس ثانوية وعليا؟
عبد الرشيد: لن تسمح الحكومة بذلك ، ومع هذا فقد افتتحت في السنوات الأخيرة عدة مدارس يمكنها سد الحاجة..
الفرنسي : كم عدد نوابكم؟
عبد الرشيد: ثمانية
الفرنسي : إنه لأمر عجيب حقا! مليونان من الناس لهم ثمانية نواب ذلك ظلم فاضح..
يقول عبد الرشيد:وهنا اغتنمت الفرصة وقلت له : إذا وجدت القوة فلا تسل عن الحق..إن شعبكم الفرنسي يعامل مسلمي الجزائر كالبهائم ..يسبون دينهم ، ويدوسون حقوقهم الإنسانية بالأقدام ، فإذا استسيغ مثل هذا الظلم من شعب متحضر مثل فرنسا ، فلا يجوز لنا أن نلوم الروس على أفعالهم..وبدأ الامتعاض على وجه صاحبنا

---

[١] ذكريات لا مذكرات - ثروت أباظة

فاستأنف قائلاً: ما يسميه الأوروبيون بالحضارة هو مجرد قناع ، أو وسيلة للظلم فلا راحة للضعفاء ما دام الحكم للقوة، وفي هذه الأثناء وصل القطار إلى جيلاني فجمعت أمتعتي وودعت أصحابي ونزلت من القطار" وقد كان الرجل صادقا مع نفسه ولم يكابر وإنما اعترف أمام حجة عبد الرشيد بحقيقة الأوروبيين الهمجية.

وللشيخ الغزالي تعليق حول هذا التناقض لا بد من ذكره، ففي كتابة القيم (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) يقول: (إننا ما ننكر التفوق الغربي في النواحي السياسية والاجتماعية ، لكن فضائل الديمقراطية محظور تصديرها للخارج ، وإنني أغبط أسرة الدول الأوربية الغربية على اختفاء المستبد من ربوعها ، وعلى استقرار المجالس التشريعية، وتنفس كل إنسان في جو من الحريات الموطدة وتنافس الملكات الذكية في الخدمات العامة.. إن المظالم- فردية كانت أو اجتماعية - مرفوضة رفضاً قاطعاً، والرقابة على المال العام صارمة ، وإحساس كل امرئ بامتداده ليس أمامه عائق، الشيء المستغرب أن حملة هذه الحضارة يحتكرون الصنف لأنفسهم، وتنقلب موازينهم عندما يعاملون غيرهم ، إن أوربا للأسف تعرف الدين عملياً عندما يقع النزاع بين العرب واليهود ! أو عندما تريد توسعة أملاكها وراء البحار، وتشد عربات كثيرة في قاطرتها المنطلقة... إنها عندئذ تجتر ذكرياتها التاريخية ضد الإسلام ، وتنسى الصدق والعدل في كل قضية للعرب والمسلمين ، ولا تبالي بمستقبل الفلسطيني التائه ، أو الأفغاني المحروب ، أو أمثالهما من الجماهير التي وقعت في براثن الاستعمار ، وكانت تعتنق الإسلام..)[1]

يقولون : إن في داخل كل إنسان طاغية ينتظر الظهور.. هناك ديكتاتور في داخلنا ينتظر الوقت المناسب والسلطة المناسبة للتحكم بالآخرين..فنفعل تماما كما يفعل مدراءنا ووزراءنا حينما نصل نحن إلى الكرسي ونحل محلهم.

وما تظهر به المجتمعات المتحضرة ما هو إلا ادعاء وزيف، مثل الذي أقره ذلك الفرنسي الذي حاور الرحالة (عبد الرشيد إبراهيم) ؛ فأوروبا أنهت الحرب العالمية الثانية بأربعين مليون قتيل، وألمانيا على قدر رقيها وتحضرها أحرقت بقية الأعراق في معتقلات الغاز، واليابان رغم أدب شعبها وخجل نفوسهم، ارتكبت في كوريا والصين بشائع يندى لها الجبين، والشعب الفرنسي رغم أنه أول من نادى بمبادئ الحرية والمساواة لم يعتق الجزائر قبل إزهاق مليون قتيل.. أما الأميركان فما يزالون أسياد الكيل بمكيالين حين يتعلق الأمر بغزو الدول العربية والإسلامية..!

المعضلة تكمن في طبيعة الإنسان نفسه الذي لا يدرك أنه يتحول لطاغية بمجرد امتلاك سلطة مطلقة وغياب القانون والمبادئ العليا..

وهناك تجربة يرويها الكتاب حول هذا المارد الذي يقبع داخل النفس وينتظر لحظة الظهور ليفعل الأفاعيل التي كان ينكرها بالأمس ، لقد (بدأت هذه التجربة بتساؤل أحد الطلاب (في إحدى المدارس الثانوية في كاليفورنيا عام ١٩٦٧م:كيف استسلم الشعب الألماني المتحضر لنظام هتلر النازي وسمح له بقتل هذا العدد الكبير من الناس؟

---

[1] الغزو الثقافي - الشيخ محمد الغزالي

وكي يمنحهم فهماً أفضل اقترح عليهم مدرس التاريخ ويدعى (رون جونز) القيام بتجربة بسيطة تشرح كيف أن البشر بطبيعتهم ميالون للانقسام واضطهاد بعضهم لأتفه الأسباب..وهكذا اتفقوا على تقسيم طلاب الفصل إلى جلادين متسلطين (٤ طلاب) ومواطنين خانعين (١٢ طالبا) وأفراد مضطهدين (٤ طلاب) لمدة ثلاثة أيام..وبسرعة غير متوقعة تحولت المجموعة الأولى إلى مجموعة قاسية تعامل الطبقة المضطهدة بقسوة مفرطة.. وفي هذه الأثناء بقيت المجموعة الثانية (المواطنون الخانعون) تتخذ موقف المتفرج الرافض للتدخل (فمن شروط التجربة أن من يتدخل ينتقل تلقائياً للطبقة المضطهدة)..

والأكثر عجبا أن طلاباً من الفصول الأخرى انضموا للطبقة المتسلطة (وأخذوا المسألة جد) وأصبحوا يتعاملون بشكل قاس وظالم مع المضطهدين الأربعة دون أن يدفعهم لذلك خوف من عقوبة أو طمع في مكافأة..

ورغم أن إدارة المدرسة أوقفت التجربة ونقلت الطلاب (المضطهدين) إلى مدرسة أخرى (كونهم أصبحوا مستباحين من قبل الجميع) أكدت التجربة ذاتها سهولة انقسام المجتمعات المنهارة إلى ثلاث طبقات:

طبقة متسلطة صغيرة (تملك السلطة والسلاح)..

وطبقة صامتة متغاضية (تشكل الشريحة الأوسع من الناس)..

وأقلية مستضعفة يتم اضطهادها على أسس تافهه (عرقية أو مذهبية أو حتى تاريخية)..

ورغم إيقاف المعلم جونز عن التدريس إلا أن تجربته لفتت انتباه الطلاب إلى أنهم تحولوا بدورهم إلى (نازيين) بلا سبب وبلغ إعجاب علماء النفس بها حد تكرارها على نطاق واسع!) [١]

وهذا حال النفس إذا لم تتسلح بالإيمان والفضيلة والقيم ، وتطغى وتستأسد على الضعفاء إذا ما تمكنت ، وقد يكون في هذا جواباً على بعض ما نحتار فيه.!

ركائز المصلحين

إن خدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم من أفضل القربات عند الله سبحانه وتعالى ، ومن يقومون بهذه المهمة هم أخير الناس وأفضلهم، وهؤلاء هم المصلحون في حياة البشر ، والمهتمون بهموم من حولهم ..والدعاة على المنابر وكل صاحب فكرة ودعوة، لا ينال مكانة في قلوب الناس بالحديث والمنبر دون أن يكون نشيطاً مؤثرا في حياة الجماهير التي يبلغ بينها رسالته، فيقضي حوائجهم ، ويحل مشكلاتهم، ويسعى لخدمتهم وهذه هي الصورة الحقيقية للدعاة والمصلحين التي جهلها في هذا الزمان من يقوم على وعظ الناس وتقويمهم..خاصة دعاة الدين وعلمائه.. الذين كان لهم في الماضي شأن يختلف عن شأنهم في الحاضر، فكثير من دعاة الدين يؤدون دعوتهم كوظيفة وليس لهم أي أثر في حياة الناس ، ومن هنا.. ترى الناس لا يتفاعلون مع دعوتهم ولا ينقادون لهديهم ..لأنهم لم يستكملوا طريق الإصلاح من كل جوانبه.

---

[١] من مقال لفهد عامر الأحمدي جريدة الرياض عدد١٧١١١ تاريخ ٢٠١٥/٤/٣٠م

إن البر بالناس وصناعة الخير ..سمات أكيدة في المصلحين والأئمة الذين يغيرون حياة الناس وينتشلونهم من الجهالة إلى النور ، ويضعونهم على طريق النهوض والرقي والقيم..والله تعالى يصف هؤلاء المصلحين من المسلمين بقوله:
(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) (الأنبياء:٧٣)
ففعل الخير كان ضرورة تصاحب الدعوة إلى أمر الله تعالى والهداية لدينه..وهكذا كان ﷺ حسب ما عرفنا من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في ردها عليه ﷺحينما أتاه الوحي فأرادت أن تخفف عنه وتزيح من ريبته ، فأبرزت له معالم الخير في نفسه وسمات الإصلاح في شخصه الكريم فقالت له: (كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)، وهو دور الزوج العظيمة حينما تساند زوجها في رسالته ، وتدعم ثقته في نفسه، وتذكره بما قد غاب عنه وتبرز فيه سماته القيادية التي تؤهله لحب الناس والمكانة من الله.
وفي حياة الرحالة الإسلامي الكبير (عبد الرشيد إبراهيم) ما يلفت إلى هذا المعنى فعندما ترك قازان نظر إليها حزينا وهو على ظهر السفينة فهي البلدة التي أحبها ، وكتب عليه فراقها ..ثم يتعرف على رجل طرق بابه ودعاه للإفطار معه ، وتناول الشاي فسأله الشيخ عبد الرشيد عن اسمه وبلده ، فعرف منه أنه إمام قرية من ناحية جيستاي بولاية قازان ، وبدأ الحديث بينهما فقال له عبد الرشيد: يا سيد منذ متى تقوم بالإمامة ؟ فأجابه منذ ثمانية عشر عاماً..فقال عبد الرشيد: أرجو ألا يفهم كلامي على غير ما أقصد ، فخلال السنوات الثماني عشرة ماذا قدمت للحي الذي تؤم الناس فيه؟ ما هي خدماتك؟ لقد قدم لك أهل الحي طيلة ثمانية عشرة ما يكفي لمعيشتك وللإنفاق على عيالك ، على كل حال كنت في وضع لم يطلع عليه أحد ، لعلك كنت في أوقات طيبة ، فما هي الخدمات التي قدمتها للحي مقابل خدماته ..؟ حدثني عن المنافع التي جلبتها لهم!..
فأجاب الإمام : لقد صليت على جنائزهم ، وسجلت أبناءهم ، وعقدت زواجهم ، هذه مهمتي..! فقال له عبد الرشيد: أنا لا أسألك عن الأمور التي قمت بها لمصلحتك ، بل أقول ماذا عملت من أجل مصالح الناس ؟ لنفرض أنه لم يكن في الحي مدرسة قبلك، فهل افتتحت مدرسة؟، أو بذلت النصح لهم في المساجد ، أو منعت عنهم فساد الأخلاق ، أو كان أهل قريتك فقراء فشجعتهم على الكسب والارتزاق ، فحسنوا أوضاعهم المعيشية ؟ حدثني عن مثل هذه الخدمات ..!
فقال الرجل : يجب الاعتراف بالحق ، حتى الآن لم يحدث شيء من هذا ، ولكنك أرشدتني ..أؤيدك في هذا الرأي بصدق ..سأقوم من الآن بوعظ الناس في المساجد وأحضهم على الكسب والبحث عن الرزق بإذن الله ..لقد محضتني النصح فجزاك الله خيراً، لقد شرحت صدري بكلامك الطيب)[1]

---

[1] العالم الإسلامي في رحلات عبد الرشيد ابراهيم-تحقيق دكتور صالح مهدي السامرائي

استغرق هذا الحوار نصف ساعة تفتحت فيه أعين الرجل على آفاق كان يجهلها وعرف ما غاب عنه من دورة الحقيقي تجاه من يصلحهم.. ولم يوجهه الداعية الكبير إلى دورة الوعظي عبر الكلام فقط ، وإنما وجهه إلى دوره الاصلاحي في حياة قومه الذين ينتظرون منه حماسة وصيحة تنهض بهم في كل شؤون الحياة .

إن العمل الاجتماعي، من أعظم الأعمال الدعوية التي تؤلف قلوب الناس حول الدعاة، وتفتح لهم مساحة كبيرة من الحب والود، تجابه بها مساحة الكره والتشويه التي يشعل نارها ويؤججها أعداء الإسلام ومبغضيه، الذين يكيدون له ليل نهار، ويبتكرون في تدبيرهم..كيف يهدمون لبناته، ويوقفون مده ، ويشوهون رجاله ورموزه.؟

إن العمل الاجتماعي هو الطريق الذي يمهد للدعوة ويشرح الفكرة..تقترب منه الجماهير فتعرفه وتحبه وتؤيده وتنصره لأنه دائماً من يسعى لخيرها وبرها والسؤال عنها..بل لا يخفي أن هذا الجانب كان وراء صعود الصحوة الإسلامية الحديثة، ونمو تيارها بين الجماهير العربية، وهو ما أكدته باحثة أمريكية بجامعة (جورج تاون) الأمريكية حيث قالت: (إن الجماعات الإسلامية السياسية أكثر مصداقية من غيرها بسبب التصاقهم بهموم شعوبهم في تنمية المجتمعات الإسلامية من داخلها.)

(وقد رأينا مجدداً مثل (حسن البنا) رحمه الله..لم يغفل أهمية هذا الجانب العمل الاجتماعي من دعوته وحركته فقد حظي بعناية بالغة، وجعله أحد أهدافها الأساسية، وكان ينشئ في كل شعبة قِسماً للبر والخدمة الاجتماعية، مهمته تنظيم فعل الخير، والدعوة إليه على كل صعيد، ومن العجيب أن بعض الحركات والأحزاب الإسلامية، حرمت على أتباعها العمل في هذا الميدان، حتى تقوم الدولة الإسلامية المرجوة، فكل مهمتهم هو الانتظار على طريقة (انتظار المهدي) الذي تنشق عنه الأرض، أو تنفرج عنه السماء، في يوم وليلة..؟!

و(مهدي) هؤلاء هو الدولة أو الحكم الإسلامي المنتظر، فهم واقفون في طابور الانتظار، بلا عمل يذكر، حتى يتحقق موعودهم!! و إن منهم من غلا، فقال: لا جهاد إلا تحت راية الدولة الإسلامية ولا دولة فلا جهاد، وبعبارة أخرى: تحت راية الإمام ولا إمام!!.

ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا في ظل الدولة المنشودة!!.

وبقى عليهم أن يقولوا: لا صلاة ولا زكاة إلا بعد قيام الدولة!!.) [1]

إن الداعية الناجح يتعرف على أحوال الناس وأوضاعهم، ولا تغيب عنه كثير من أمورهم الفكرية والاجتماعية والنفسية، وهذه المعرفة تأتى من خلال العلاقات العامة والمعايشة والنشاط الاجتماعي.

(ومن جوانب المعرفة الضرورية والمفيدة معرفة أوضاع المدعو الاقتصادية، فإن كان فقيراً معوزاً كانت مساعدته من أهم القضايا التي تهم الداعية، وإن كان مريضاً كانت مواساته وإرشاده إلى الطبيب، وإن كان في نزاع مع أحد من أقربائه أو جيرانه، أو زوجته كان الإصلاح وجمع الشمل من أهم أعمال الداعية، وإن كان قد هضم حقه في وظيفة، أو عمل كان إنصافه ونصره من طموحات الداعية، وإن كان

---

[1] أين الخلل د-يوسف القرضاوي.

مسترشدا أو طالب نصيحة في دين أو دنيا كان الداعية حاضرا لكل إرشاد ونصيحة ممكنة، وإذا عجز عن ذلك فلن يحرم من نصير من إخوانه يسد العجز ويفرج الكرب)[٢]

وفي عام ١٩٤٧م دخلت (الكوليرا) وانتشر وباؤها في مصر وانتاب الشعب المصري الفزع والخوف، وأسرع (حسن البنا) بتجنيد شباب الإخوان في جميع البلاد، للمساهمة في النشاط الطبي، وعزل الأصحاء عن المرضى والمساعدة في الإجراءات الصحية والتطعيم والتموين، وبعد إنقاذ البلاد من هذا البلاء، رأت وزارة الشئون الاجتماعية أن تقدم لشباب الإخوان الذين اشتركوا في هذا المجهود الخطير، مكافآت مالية تقديراً لجهادهم.

ولكن (حسن البنا) رحمه الله رفض المكافآت باعتبار أن (الإخوان المسلمين) قد قاموا بواجبهم الإسلامي، الذي يفرضه عليهم دينهم وعقيدتهم ومشاعرهم الإسلامية...وهكذا يغتنم الأستاذ البنا هذه الظروف.. ليعلن عن شمول الدعوة الإسلامية وإحاطتها وحركتها التي تشمل أمور المسلمين جميعاً)[٣]

ويسجل الدكتور (سعيد إسماعيل علي) هذا الاهتمام من جانب الإخوان بقوله : (في عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ كنت مفتوناً مع بعض الزملاء بحركة مصر الفتاة وزعيمها أحمد حسين، وفتحنا مقراً له في بلدتنا (المرج) ورحنا نملأ جدران بيوت القرية شعارات الحزب لكن الحق يقال: إن الإقبال على الانضمام إلينا كان باهتاً للغاية في الوقت الذي كنا نرى فيه (شعبة) الإخوان المسلمين ، تمتلئ بالمريدين، فامتلأت قلوبنا غيظاً وحسداً..فماذا فعلنا؟

لم نقذفهم بالحجارة، ولا نثرنا عنهم إشاعات تسئ إلى سمعة هذا أو ذاك، ولا حرضنا الناس عليهم، وإنما – ونحن صغار في الصفوف الأولى من التعليم الثانوي القديم درسنا أسباب إقبال الناس عليهم – غير الدافع الديني- فوجدناهم قد أتاحوا لخريج طب حديث منهم، أن يستقبل المرضى في الشعبة ليكشف عليهم بأجر غاية في الزهد، وكان هذا يحدث في القرية لأول مرة، فتقاطرت عليهم الناس.

وعقب حدوث زلزال ١٩٩٢م فوجئ أهل شبرا على ما أتذكر بعد ساعتين، - ربما- بخيام المساعدات قد نصبت لتقدم ما يحتاجه المتضررون، فانفتحت للمنقذين القلوب، كانوا من هيئة الإغاثة بنقابة الأطباء ، لكن ..لأن معظمهم كان من الإخوان، سارعت الحكومة باستصدار أمر عسكري بحكم حالة الطوارئ التي لم نعرف غيرها يحتم ألا يقوم أي أحد بتقديم مساعدات إلا عن طريق رئيس الوزراء، الحسد والغيرة أكلت قلوب المسئولين الحكوميين الذين عجزوا أن يقدموا للناس ما يحتاجون بهذه السرعة التي حدثت فكان الأمر العسكري، ولو على حساب صحة وسكن ومصير مئات من المصريين . . الإخوان يقدمون خدمات تخفف الجراح وتكسى العاري، وتطعم الجائع، وتأوي الهائم على وجهه في الطرقات)[١]

وعلى صعيد الأخوة الإسلامية كان حضور رائد الصحوة الإسلامية وجماعته حاضراً.. فمهما تباعدت الأوطان والبلدان، فإن رباط العقيدة يشد بين القلوب، ويوحد

---

[٢] قواعد الدعوة إلى الله – د.همام سعيد ص ١٣٩

[٣] حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية - عباس السيسي.

[١] جريدة الدستور العدد السادس والستون٢٠٠٧/١/١٧م

الغايات ويجمع المشاعر، فلا تطيق أو تقبل أن ترى مسلماً مضاماً، فتتركه هملاً ولا تسارع لنجدته ونصرته وإظهاره على عدوه ..لقد كان الداعية (حسن البنا) يملك عاطفة قوية لا حدود لها تجاه المسلمين في كل أقطار الأرض..كان يتحرك شوقاً لنصرتهم ، ويتابع بشغف أنباءهم، وتحترق نفسه ألماً لآلامهم..هكذا تعامل مع محنة إخوانه في فلسطين، ومحنة إخوانه في سوريا..سوريا التي تلقى اليوم أهوالاً وجراحاً لم يعرف التاريخ في قديمه وحديثه بمثل بشاعتها ووحشيتها ..قتل وذبح وحرق وخراب ودمار تئن له القلوب وتتوجع منه النفوس..وتكاد من الحزن تفارق الحياة..إننا نستدعي مأساتها بالأمس، لنمزجها بمأساة اليوم، لنرى كيف سارع (حسن البنا) للوقوف بجوار إخوانه في محنتهم، في الوقت الذي يموت فيه آلاف اللاجئين في الأردن ولبنان من البرد والجوع والفاقة ، ولا يجدون من المسلمين إلا دعماً زهيداً لا يسد رمقهم.

قامت سوريا تطالب بالحرية وجلاء فرنسا عن أراضيها، قبل انتهاء الحرب الثانية وانهزامها أمام الجيوش الألمانية، ولكن فرنسا ماطلت في وعودها، وأصرت على البقاء رغم انهزامها، فقامت في سوريا ثورة شعبية عارمة، قابلها المستعمرون بالمدفعية الثقيلة، ليسقط كثير من الجرحى والقتلى..وعلى أثر ذلك أرسل الملك فاروق بعثة طبية على رأسها طبيبه الخاص (أحمد باشا النقيب)، لمداواة الجرحى، وكانت لفته طيبة من الملك، وتجاوباً مع الشعور الوطني الذي غير جميع الشعوب العربية والإسلامية.

ويقول الأستاذ (عباس السيسى): إن الأستاذ (حسن البنا) أدرك بعاطفته الإسلامية، وإحساسه العميق بوحدة المشاعر وشمول الدعوة وعاطفة الأخوة الإسلامية الصادقة ، أن عليه واجباً إسلامياً تفرضه عقيدته، فقام وإخوانه بتجهيز بعثة طبية كاملة، على رأسها د.(محمد سليمان) وبعض الأطباء والممرضين وكل ما يحتاجونه من إسعافات وأدوية، وقامت طائرة تحملهم إلى دمشق، وهناك شمرت البعثة عن ساعد الجد، ونزلت المساجد وجعلوا منها مستشفيات، وواصلوا الليل بالنهار في صبر وصمت وعاطفة جياشة بالحب نحو إخوانهم في سوريا.

ولاحظ الشعب السوري الشقيق، نشاط هذه البعثة التي تقوم بواجبها في غير ضجة ولا دعاية وفي حب وإخلاص وانقطاع للعمل الأخوي دون مظاهر أو إعلان، فتأثر الشعب السوري بهذه الروح الإسلامية النقية المخلصة المتفانية، وأعطته مفهوماً جديداً عن الإسلام المتحرك المتجاوب مع الأحداث والمواقف. . الإسلام الذي لا يعرف عصبية ولا قومية ولا أنانية، هذا الإسلام هو الذي تحركت به هذه البعثة تطبيقاً لقول الله تعالى: (إنما المؤمنون أخوة) الحجرات:١٠

وكان في سوريا وقتها جمعية أطلقت على نفسها (جمعية شباب سيدنا محمد) راعها وأعجبها ما شاهدته من البعثة الإخوانية فتأثرت بمفهومها عن الإسلام، ودار بينهم نقاش حول الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين ، حتى يتوحد الصف الإسلامي والعمل لدعوته ، وحضر وفدهم إلى القاهرة برئاسة الدكتور (مصطفي السباعي)، والتقوا بالإمام البنا وأعلنوا انضمامهم للإخوان في حفل رائع عظيم.

وعلى ذات المعاني كان الإمام الجليل (أبو الأعلى المودودي) من أرق الناس أفئدة وعطفاً على الفقراء والمساكين والمحتاجين إذ لما أعلن عن قيام باكستان في ٣ يونيه ١٩٤٧م راح حزب المؤتمر الهندي يعبىء نفوس الهندوس والسيخ ضد الإسلام والمسلمين ويصور لهم تقسيم الهند على انه قطع لأوصال الهند وذبح لآلهة الهندوس ، فإذا بهم يشنون غارات بربرية على أقاليم المسلمين خاصة إقليم البنجاب ويعملون أسلحتهم في رقاب المسلمين على نحو لم تشهد له البشرية مثيلاً وظلوا من أغسطس لنوفمبر يرتكبون المذابح المروعة ويسفكون دماء الكبار والصغار من المسلمين ويقطعون الرقاب ويبقرون البطون ولم يفلت منهم أحد ..

وقضى التقسيم على أن تضم باكستان الأقاليم التي يسكنها مسلمون فكان إقليم (جورداسبور) من نصيب باكستان ، لكن نهرو اللعين كان طامعا في كشمير ، وكان الطريق الوحيد الذي يربط كشمير بالهند يمر من (جورداسبور) ومن ثم أعلن بعد ٣ أيام من التقسيم ضم (جورداسبور) إلى الهند وبعد هذا الإعلان راح الهندوس يهجمون بوحشية على المسلمين في قراهم مما أدى لفرارهم إلى باكستان ولجأ منهم أكثر من ألف مسلم ..

حينئذ كان دور الإمام (أبي الأعلى المودودي) كبيراً بين صفوف اللاجئين فقد أقام معسكرا لهم ورتب فيه الإقامة والمأكل والمشرب والرعاية وتدابير الأمن، وكان يقسم الطعام بنفسه بينهم، وكان يعطي لنفسه نصيبا مثلهم تماماً رغيفين في اليوم ، كما نظم دوريات الحراسة حتى بدا المعسكر غاية في الترتيب والتنظيم..

وحدث أن حضر إليه أحد الضباط الكبار لأخذه للمنطقة الآمنة، لكن الإمام رفض أن يذهب وحده ليحمي نفسه ويترك هؤلاء المساكين يصارعون الموت ، وفي ذلك الوقت حضر إليهم أحد أنصار الجماعة الإسلامية ومعه مجموعة حراسة من باكستان وأخذ الأطفال والنساء إلى لاهور، وبعد أيام استولى الجيش الباكستاني المعسكر ورحل المودودي ورفاقه إلى لاهور ووصلوها ليلا في أغسطس ١٩٤٧م.

ولما وصل المهاجرون إلى لاهور كان هناك مبنى مخصص لهم لكنه أخذ منهم ، فقرر الإمام عدم الاعتماد على ذلك ونصب الخيام في الميدان العام وأقام الجميع فيها ، وكان الشتاء على الأبواب والأمطار تغرق الشوارع فاقترح البعض أن يعطوا للأستاذ بيتا يأوي إليه هو وعياله فرفض وألح عليه رفاق الهجرة أن يقبل ذلك حتى لا يعرض نفسه وأهله للخطر ، لكنه أصر على الرفض ، وقال : كيف أسكن في منزل ويسكن غيري في الخيام تحت السيول والأمطار ، ونحن سواء ، ليكن كل منا مع الآخر في اليسر والعسر وفي الفرح والهم ومكثوا تحت سيول الأمطار شهراً إلى أن وجدوا بعض البيوت ذات الإيجار الزهيد في حي (أتشره) فانتقلوا إليها ، ثم أقامت الجماعة الإسلامية معسكرا لإمداد المهاجرين، ووجه الأستاذ نداءه إلى كافة المسلمين ليقدموا إليهم ما استطاعوا من معونة ، فجاءه الناس من كل مكان بملابس وبطاطين وأغطية وأموال وأدوية وحلي وطعام وكل ما يلزم للحياة

إن خدمة الداعية للآخرين ، وتلبيته لاحتياجات المحتاجين، تمكن لدعوته من القلوب، فيرى الضعفاء والمساكين والمرضي والمعوزين..إن هذا الداعية هو الذي يُمثلهم لأنه القريب منهم والقائم على حاجاتهم والشاعر بآلامهم..فالدعوة ليست منبراً لعرض

الأفكار والنظريات..والداعية ليس (مذياعا) يردد الأفكار المجردة فحسب..بل إن الدعوة والداعية.. يجب أن ينتقلا نقلة نوعية تجعلهما يعيشان هموم الناس، ويحملان بقسط وافر من هذه الهموم..وهذا الأمر ليس من قبيل الدعاية والمتاجرة والاستغلال، كما هو الشأن لدى الجمعيات التبشيرية وغيرها، وإنما هو مبدأ في صُلب المنهج الإسلامي لا يصح الإسلام إلا به.. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)[١]

وقال أيضاً: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.)[٢]

في كثير من الأحيان تحوُل هموم الناس ومشكلاتهم بينهم وبين التلقي..وتصبح هذه الهموم والمشكلات سداً في وجه فكرة الدعوة..وكان من واجب الداعية أن يبادر إلى إزالة العوائق من طريق دعوته قدر المستطاع، وإلى فتح القنوات التي تصل بأفكاره إلى قلوب المدعوين وعقولهم.

والإيمان نفسه هو الذي يدفع الداعية أن يُحب لغيره ما يحب لنفسه ..وهذا لا يكون إلا بالسعي في شئونهم وقضاء حوائجهم.. والأخوة الإسلامية نفسها والتي تقوم على الحب في الله..لا يمكن أن تتحقق على أرض الواقع، ويتحقق نقلها من حيز الادعاء إلى حيز التطبيق، إلا من خلال المساعدة والمساندة والاهتمام والسعي وقضاء الحاجة.

وإذا كان رسول الله ﷺ يتبرأ من إنسان يبات شبعان وجاره جائع وهو يعلم، فهو أكثر تبرؤاً من إنسان يقدر أن يرفع الظلم عن أخيه، أو يقضى حاجته، أو يفرج كربه، أو يزيل همه، ثم لا يفعل؟ إن الداعية بحق هو الذي يعيش لسواه لا لنفسه.. يدور حول مجتمعه وحول المسلمين وليس حول ذاته..وهو الذي يعمل على توفير الراحة للآخرين ولوعلى حساب راحته..هو الذي تسعده سعادة الآخرين وتُشقيه شقاوتهم ، يرتاح إذا ارتاحوا، ويطمئن إذا اطمأنوا، ويسعد إذا سعدوا..فإذا قامت هذه الوشائج بين الداعية وبين الناس، تحقق الوصال والاتصال، وتحقق التأثر والأثر، ونجحت المهمة، وآتت الدعوة أكلها بإذن ربها.

ولقد كان من صفاته ﷺ أنه كان يجلس إلى الناس ويستمع لهم حتى وقع الظن لدى البعض وأشاع البعض الآخر من المنافقين، أن رسول الله (أذن) يستمع إلى هذا ويصدقه ويستمع إلى ذاك ويصدقه –أي تنطلي عليه الأمور- فنزل في ذلك قوله تعالى:

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(التوبة:٦١)

(إن من أسباب ركود الدعوة أو جمودها، اكتفاء أصحابها بالإطلال على الناس في المناسبات – بمكتوبات أو مقولات- والدعوة الناجحة هي الدعوة الموصولة بقضايا الناس لأنها ستكون عند ذلك موصولة بقلوبهم ومشاعرهم..إن الفكرة المجردة تدب فيها الحياة وتصبح قضية متحركة، إذا ما تجسدت في الحياة وطرحت على أرض

---

[١] رواه الطبراني في الكبير

[٢] رواه الحاكم في مستدركه والطبراني ، وقال الألباني في الضعيفة - ضعيف جداً.

الواقع، والفكرة تبقى نظرية وبعيدة ما لم ترتبط أو تحاكى واقعاً معاشاً ، أو بالتالي تكون معالجة مع هذا الواقع سلباً أو إيجاباً..)[١]

وشاب الدعوة عليهم واجبات عظمى تجاه المواطنين بكافة شرائحهم وأشكالهم ، يحتكون بهم في كل مكان ويعاملون في حياتهم اليومية ..لابد للشباب الرسالي أن يكون قائد الفكر والنهضة في الأمة ، بل قائد الإصلاح والمتصدر لمشكلات الناس لا بد لهم أن (يسهموا في تعليم الأميين حتى يقرؤوا، وفي علاج المرضى حتى يصحوا، وفي تقوية المتعثرين حتى ينهضوا، وفي مساعدة المتبطلين حتى يعملوا، وفي معاونة المحتاجين حتى يكتفوا، وفي توعيةالمتخلفين حتى يتطوروا، وفي تذكير العصاة حتى يتوبوا، والأخذ بيد المنحرفين حتى يستقيموا، وكشف المنافقين حتى يختبئوا، ومطاردة المرتشين حتى يرتعدوا، وإنصاف المظلومين حتى ينتعشوا.. وما أكثر الميادين التي تحتاج إلى جهود الشباب، وعزائم الشباب، وحماس الشباب! انزلوا إلى الشعب واختلطوا به، وعيشوا في همومه، وشاركوه متاعبه، اربتوا على أكتاف المهمومين، امسحوا دموع اليتامى، ابتسموا في وجوه البائسين، خففوا الحمل عن كواهل المتعبين،أغيثوا الملهوفين، اجبروا كسر المكسورين، داووا جراح القلوب الحزينة، بموقف عملي، أو بكلمة طيبة، أو ببسمة صادقة) [١]

ويوم يتحقق هذا التلاحم بين الفكرة والشعب تجد الفكرة من ينصرها ويدعمها ويشد من أزرها لأنها صارت محببة إلى القلوب قريبة من الأفئدة .

فارس في ميدان الإحسان

فارس في ميدان الإحسان.. هكذا كانت حياة هذا الإمام العظيم ، والسمة البارزة التي عكست ما في نفسه من إيمان مطلق بهذه القيمة والحب العميق في بذل الخير والبر بالناس.. ما أجمل سيرته الزاهية! فبقدر ما كانت حياته علماً ودرساً وتجديداً ونضالاً وكفاحاً وثورة ونفياً وتشريدا وإصلاحاً، بقدر ما كان متصلاً بميدان الإحسان، يمنحه من جهده وعطائه ووقته تماماً مثل ما يمنح لفكره وعمله الوطني .

ولا أعرف روعة صيغت بها حياة الإمام في ميدان الإحسان والبر ، كتلك التي صاغها أبي تمام في قوله:

تعوّد بسط الكف حتى لـــو أنه * دعاه لقبض..لم تطعه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجـــاد بها .. فليتق الله سائله

أعلمت من الفارس المنشود والإمام المقصود؟

إنه ذلك الإمام الفذ، الذي قال فيه موقظ الشرق (جمال الدين الأفغاني) حينما ودعه أهل مصر ساعة نفيه ورحيله : (تركت فيكم محمد عبده، وفيه الكفاية لمصر) هكذا كان (محمد عبده) ، وهكذا كان يقدره (جمال الدين).

لقد كان الاحسان إلى الفقراء والضعفاء من أبرز السمات التي تميزه تماما كما كان له تميزه العلمي ، كان يطعم الجائع ويغيث الملهوف ويلبي الرجاء ويبذل المال ، وكان بارا كريما عطوفا مانحاً، كان يفكر ليل نهار في أنواع البر والخير التي يسديها إلى الناس ويقدمها لهم.

---

[١] الاستيعاب في حياة الدعاة للأستاذ/فتحي يكن .